جورج برنارد شو

المسيح ليس مسيحيًا

(مقدمة لمسرحية «اندروكلس والاسد»)

ترجمة: جورج فتاح

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

المَسِيحُ
لَيْسَ مَسِيحِيًّا

(مُقدِّمة لمسرحية «أندروكلس والأسد»)

ص.ب : ١١١٨١٣
تلفون : ٢٥٧١٧٨
٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى
آذار (مارس) ١٩٧٣
الطبعة الثانية
آذار (مارس) ١٩٧٩

الفهرس

الفصل الأول

مقدمة في اغراض المسيحية

لماذا لا تعرض المسيحية الى التحكيم العقلي ؟

بعد ان مر الفان من السنين على التمسك العنيد بالصيحة القديمة : «ليس هذا الرجل بل برأبا» (١) قد يخيل لنا من العبث

---

١ ـ برّابا Barabbas هو احد الثائرين اليهود على الحكم الروماني نجم في عهد المسيح وكان يهاجم المخافر والدوريات العسكرية الرومانية وينهب ويقطع الطرق ، قبض عليه بعد كثير من العناء وحكم بالموت الا انه لم ينفذ فيه وبقي سجينا حتى اذا ألقي القبض على المسيح وجيء به امام التترارك (الحاكم الروماني) بيلاطس ذهب اليهود اليه لكي يثبت حكم الموت الذي اصدروه على يسوع وكانت السلطة الرومانية لا تسمح بقتل المجرم الا بعد ان تصادق على

الباطل ان نخوض في الموضوع . مع هذا ، فالامر يبدو وكـأن الفشل والاخفاق حليف برّابا وان ظلت يده اليمنى قوية باطشة، وبقيت امبراطوريته وانتصاراته وملايينه ومبادؤه الخلقية وبيعه ودساتيره السياسية قائمة . هذا الرجل لم يمن بالاخفاق فـي الواقع ، غير ان العقول لم تبلغ بعد النضج الكافـي لتجريب طريقته ، على أنه كسب نصرا عجيبا واحدا ؛ وهو سرقته اسـم «ذاك الرجل» (١) واتخاذه صليبه علما وشعارا . ان في هـذا نوعا من التكريم بل نوعا من ولاء يشبه ولاء قاطع الطريق الـذي يخرق كل قانون تم يدّعي بأنه مواطن مخلص من رعايا ذلك الملك الذي قام بسن تلك القوانين المخروقة . لقد كان يلازمنا دوما ، شعور غريب بأننا وان صلبنا المسيح على عود فانه استطاع بشكل ما ، ان يقبض على النهاية الصحيحة منه (٢) وانه لما كان أفضل

ذلك . وكان من التقليد ان الحاكم يطلق لهم في كل عيد سجينا ، ايّ واحد ارادوا فسألهم بيلاطس «من تريدون ان أطلق لكم ؟ أبرأبا ام يسوع الذي يقال له المسيح ؟» لكن الاحبار والشيوخ اقنعوا الجموع بأن يطلبوا برابا ويهلكـوا يسوع . فقال لهم الحاكم : «ايهما تريدون ان اطلق لكم ؟» فقالوا «برابا» فقال لهم بيلاطس «فماذا افعل بيسوع الذي يقال له المسيح ؟» فأجابوا جميعـا «ليصلب» . وهذا ما يقصده هنا (شو) بقوله : «ليس هذا الرجل تطلق بـل اطلق برأبا» . فبرأبا بالنظر الى (شو) هو رمز لكل من يعتبره قد تجاهل او اساء تفسير تعاليم يسوع ، وبرنارد شو هنا يعكس التفضيل العصرى للماديات على الروحيات . (وردت حادثة برأبا في الاناجيل الاربعة ، متى : ف ٢٦ ، مرقص: ف ١٥ ، لوقا : ف ٢٣ ، يوحنا : ف ١٨) (جميع حواشي الكتاب للمعرب) .

١ ــ «ذاك الرجل» يقصد به يسوع المسيح .

٢ ــ The right end of the stick تعبير انكليزي بحت وقد آثرنا المفيد بحرفيته لكيلا نخلّ ببلاغته . ومعناه: ان شيئا معينا قد فهم فهما صحيحا . او ان عملا من الاعمال قد انجز بخير ما يمكن .

منا فعلينا ان نحاول تطبيق مبادئه. وفي هذا المجال جرت محاولة شاذة او محاولتان اقدم عليهما أناس تنقصهم الكفاءة ، مثل قيام شيعة (مملكة الله) في مونستر (١) ، تلك المحاولة التي انتهت بعملية صلب أشد وحشية من تلك التي وقعت في قلفاري (٢) . حتى أن الاسقف الذي تقمّص في تلك العملية دور (حنّان) ، عاد الى بيته ومات من فرط الرعب . على ان هناك رجالا ذوي مسؤولية وحول أمسكوا ، ولم يقوموا بمحاولات كهذه المحاولة ! ان هذا العالم القادر المتلىء بالكفايات والكثير المال بقي منذ عملية (الصلب) حتى يومنا هذا (برّاً بياً) لامسيحيا . ولم توضع عقيدة المسيح الخاصة طوال هذا الزمن موضع تطبيق سياسي او اجتماعي شاملين . اني لست بأكثر مسيحية من بيلاطس او مما كنت انت ايها القارىء الكريم ، ومع هذا فأنا أفضل يسوع على حنّان وقيافا (٣) تفضيلا عظيما لا يمكن قياسه . وأنا على استعداد للاقرار والتسليم ــ بعد ان تأملت الدنيا وطبائع البشر حوالي ستين عاما ــ بألا طريق هناك للخلاص من الشقاء البشري،

---

١ ــ Munster هي مدينة في (بروسيا) . كان المدعو جون قد خرج اليها من مدينة ليدن Leyden الهولندية في العام ١٥٣٣ بمهمة تبشير ووعظ ديني ، فانضم اليه اشياع كثيرون واصبح زعيما وأبا روحيا لغلاة اطلق عليهم اسم «الفديسين» ، ونصب جون هذا ملكا على مونستر فحكمها عاما كاملا . الا ان اسقف المدينة ، قام بثورة مضادة عليه انتهت بانزاله عن عرشه وتعذيبه وقتله عام ١٥٣٦ . هذا (الزنديق) ولد في ليدن ١٥٠٩ وامتهن الخياطة ثم اصبح صاحب خمارة قبل ان يباشر حجه الديني الى مونستر .

٢ ــ الموضع الذي نصب عليه صليب يسوع في الجلجلة .

٣ ــ (حنان) (اسم عبري معناه نعمة الله او هبة الله) رئيس الاحبار اي الكهنة (ت: ما بين ٦ و١٥ للميلاد) عينه كيرينيوس حاكم سورية الروماني رئيسا وخلعه الحاكم الموكل على اليهودية (فاليريوس غراتوس) كان اول من أدان المسيح بعد

الا الطريق التي كانت ستجدها ارادة المسيح على الارجح لو انـ
شاء الاضطلاع بمهمة السياسي العصري الواقعي . ارجو منك ايهـ
القارىء الا يفرغ صبرك مني عند هذه النقطة الاولية: فتقفل كتابـ
وتقذف به جانبا ؛ أؤكد لك اني مفكر علمي المنجى عصري النهـ
مرتاب بقدر ما تشتهي وتحب . ولك مني ضمان ايضا بأن لـ
الماما كافيا بالاقتصاد ، والسياسة ، المام يزيد كثيرا عما كـ
ليسوع منهما . ولتطمئن ايضا بأن في امكاني عمل اشياء لا
يستطيعها هو . اني بحسب كل المقاييس (البرابيّة) اعلى مقام
واثبت خلقا واكثر غنى بالشعور العملي منه . اني لا اكن عطفـ
للمتشردين ولا لمن يتحدث لاجلهم ايضا . ولو كنت بيلاطس لوجب
عليّ ان ادرك بأوضح مما ادرك هو ، ضرورة تخفيف الهجمات على
النظام الاجتماعي الحالي مهما بلغ ذلك النظام من التفسخ . تلك
الهجمات التي يشنها اناس لا علم لهم بأصول الحكم ولا قدرة لهم
على بناء ماكنة سياسية تطبق آراءهم . اناس يعملون بوحي الوهم
الخطر القائل بأن نهاية العالم موشكة . اني لا ادافع عن امثال
سافونارولا (١) ولا جون الليدني (٢) فهؤلاء ثقبوا

القبض عليه . نزل عن منصبه لقيافا صهره ولكنه بقي محتفظا بسلطة الحبر حتى بعد نزوله وفقا للتقليد . وكان (قيافا) عظيم الاحبار يوم حكم على (يسوع) بالموت وظل الى ٢٧ – ٣٦ م.

١ _ Fra Girolamo Savonarola (١٤٥٢ – ١٤٩٨) رئيس دير القدس مرقص الدومنيكاني في (فلورنسا – ايطاليا) . كان واعظا بليغا شديد التزمت، طالب بالاصلاح الديني والسياسي وقاد حركة ديمقراطية ضد أدواق فلورنسا وطردهم من الحكم وألف مجلسا تشريعيا منتخبا ولم يطل به الزمن فقد قبض عليه وحوكم وأعدم بتهمة الزندقة وأحرقت جثته .

٢ – تقدم التعريف به ، انظر هامش : ١ ، صفحة ٧ .

السفينة(١) قبل ان يتعلموا بناء رمث فبات من الضروري قذفهم الى البحر لانقاذ البحارة. أقول هذا لاضع نفسي في موضع صحيح بين مجتمع محترم من البشر . ولكن ينبغي لي البقاء مصرا على قولي بأنه اذا كان بوسع يسوع حل المشاكل العملية بدستور اشتراكي، وشريعة مسنونة مقننة ، تهدف الى معالجة اجتماعية خاليـــة من روح الانتقام ومن العقاب ، وبالاعتراف الكامل من الانسانية جمعـــاء بالمسؤولية الالهية فان مبادئه الممتازة تلك ستكون هي الاقتصاد المنسجم مع العقل السليم .

واقول «ممتازة» لان انسانية يسوع الشعبية وخضوعه لظرفي الزمان والمكان (أعني قبوله طراز الحياة السورية (٢) السائـــدة حينذاك) اغرقت عقيدته في كثير مما هو غير حقيقي ، ومما هو خيالي حتى باتت لا تميزه بأي شكل من الاشكال عن اي من أولئك السريان ذوي اللحى ! على ان امثال هذه العقائد ذات الصفات

---

١ ــ Scutting The Ship تعبير انكليزي صميم معناه الحرفي «اغراق السفينة باحداث ثقوب في قاعها او جوانبها» ويعمد الى ذلك في الحرب عادة لكيلا تقع السفينه في يد العدو وقد استخدم (شو) هذه العبارة قاصدا بها ان سافونارولا وجون الليدني حاولا القضاء على النظام السياسي الراهن دون ان يقدما بديل عنهما .

٢ ــ كانت اللغة السريانية القديمة (الارامية الحديثة) هي لغة التخاطب لسكان ما يؤلف اليوم العراق وسورية ولبنان وفلسطين ــ في ذلك الحين ولم يكن اليهود يتكلمون العبرانية بل السريانية ايضا (فالعبرية لغة التوراة ولا تعرفها العامة) كما ان العادات السريانية (او السورية بكلمة أدق) كانت لها السيادة كذلك . والى هذا يشير شو ، أجداً كانت اشارته ام هزلا .

العامةلا تستبطن «مسيحية مخصوصة» اكثر من ارخاء لحية (١)، والاشتغال في دكان نجارة ، او من الاعتقاد بأن الارض مسطحة وان النجوم قد تسقط عليها كالوابل الهتن ! ان المسيحية تجتذب الآن اهتمام الساسة العمليين ، بسبب احتوائها تلك العقائد التي ميزت المسيح عناليهود وعن «البرابيين» عموما ونحن من جملتهم!

لماذا يسوع بالذات وليس غيره ؟

لست أعني على اية حال بأن تلكم العقائد كانت غريبة عن المسيح . العقيدة الغريبة عن انسان قد تكون خبالا ليس غير الا اذا كان استيعابها قد اعتمد على تطور وكفاية انسانيتين نادرتين بحيث لم يحزها الا انسان واحد موهوب بصورة استثنائية فائقة للعادة . الا انها حتى في هذه الحالة قد تكون عقيمة باطلة لتعذر انتشارها . ان المسيحية هي خطوة في التطور الاخلاقي مستقلة عن اي واعظ . ان لم يوجد يسوع (ومسألة وجوده بشكل آخر يختلف عن وجود هاملت (٢) شكسبير وان كانت مسألة كثر فيها الاخذ والرد) فان تولستوي كان سيبقى يعلّم ويفكر بطريقته ، ويختلف مع المذهب اليوناني ايضا (٣) مثلما فعل سواء بسواء .

---

١ ــ معظم الرسامين يرسمون وجه يسوع بلحية ، كما ان يوسف زوج امه كان نجارا في الناصرة كما جاء في الاناجيل .

٢ ــ يشك بعض الكتاب في ان الامير هاملت بطل مسرحية شكسبير الشهيرة لا وجود له تاريخي وانه على الارجح اختراع .

٣ ــ يشير شو هنا الى الخلاف المعروف بين الروائي الروسي العظيم والكنيسة الارثوذكسية .

لقد قام بعض الناس بممارسة عقائد هؤلاء الناس (١) بمدى واسع مع ان قوانين كل البلاد اعتبرتها في الواقع عقيدة مجرمة . لقد كان عدد كبير من دعاتها ملحدين مجاهدين في الحادهم . ولكن لسبب من الاسباب اختار خيال الانسان الابيض شخص (يسوع الناصري) ليكون (مسيحا) (٢) وعزا اليه كل العقائد المسيحية. ولما كانت العقيدة هي المهمة ، ولما كان اي رمز من الرموز لا غبار عليه كأي رمز آخر شريطة ان يكون له نفس المعنى في مفهوم الجميع ، فلن تراني هنا أثير في هذه الساعة موضوع مدى صحة الاناجيل وكم أقحم فيها من الادبيات اليونانية والصينية . ان ما دوّن من اقوال معينة لـ (يسوع) لا يدحضها او يبطلها اي دليل على ان كونفوشيوس (٣) قالها قبله . وان اولئك الذين يزعمون بشكل جازم لا مرد له بأن اباه الله ، لا بمكنك انت ان تدحض زعمهم وتسكتهم بقولك لهم ان هذا الزعم نفسه قد أسند للاسكندر ولأوغسطس. وانا الآن لا اهتم بصحة الاناجيل(٤) (وبعضها مدونات

---

١ ــ اعني أولئك الذين حرجوا على التعاليم المسيحية من أمثال تولستوي وكوّنوا لانفسهم عقائد خاصة ومفاهيم يبشرون بها .

٢ ــ من «مسح» اي دهن بالزيت . كان الاقدمون يمسحون الملوك عند تسنمهم العرش . واليهود يمسحون عظيم الاحبار عند تنصيبه . وأطلقوا هذا الاسم على رسول الله الذي كانوا ينتظرونه لخلاصهم (يوحنا ف ٤ــ٣٥) بيد انهم توهموا ان المسيح سيكون منقذا سياسيا دنيويا اكثر منه رسولا يعلن ملكوت الله ويكشف للناس اسراره ويدعوهم الى التوبة والبر وينقذهم من الشيطان بآلامه وموته .

٣ ــ فيلسوف صيني (حوالي ٥٥٠ ــ ٤٧٨ قم) . ومجمل فلسفته هي «لا تعمل للاخرين ما لا ترغب في ان يعملوه لك» وقد اوصى يسوع بهذا ايضا .

٤ ــ الانجيل من كلمة (ايوانجليون) اليونانية ، وهي اسم جنس معناه البُشرى او البشارة ، وتدل كلمة انجيل في العُرف المسيحي على البشارة التي حملها يسوع الى الناس . وسميت الكتب الاربعة التي دوّن فيها متى ومرقص ولوقا ويوحنا «بشارة يسوع» بالاناجيل الاربعة .

يحوي حقائق، لاني لا اعمل عمل محقق عدلي ، بل ادير اضواءنا العصرية لالقيها على افكار في تلك الاناجيل استطاعت ان تتملص من البقية لانها مخالفة صراحة للتطبيق العام ، والادراك البديهي ، والمفهوم العام . مع انها قد انتجت ــ عندما لاكتها الريبة العنيدة وعدم الرغبة في الخضوع للسلطة والعادة ، انطباعا لا يقاوم بأن المسيح وان رفضه السلف بوصفه رجل أحلام غير عملي ، ونفذ فيه حكم الموت معاصروه بوصفه فوضويا خطرا ومجدفا مجنونا، كان في الواقع اعظم من قضاته .

أكان يسوع جبانا ؟

اني لعلى يقين تام بأن الانطباع عن هذا التفوق لا يتخلف في كل انسان . حتى في أولئك الذين يقرون بقابلية مفرطة له . واذا نحن نحينا جانبا تلك الكتلة الهائلة من المفاهيم الخاصة بعبادة المسيح التي فرضت بالتعليم المستمر الطويل وليس فيها اية ميزة حقيقية ، فانك لتجد بين الناس المتحررين حقا في التفكير بالموضوع كما يشتهون ــ مقدارا كبيرا ممن امتلأ قلبه بالكره الصميم ليسوع والسخرية بفشله في انقاذ نفسه والتغلب على اعدائه بالشجاعة الفردية ، وسعة الحيلة كما فعل محمد (ص) . لقد سمعت إشخاصا في انكلترا إرتبوا تربية مسيحية ، يعبرون عن هذا الشعور بلجاجة تفوق كثيرا ما يعبر عنه المسلمون الذين كانوا مثل نبيهم ــ في منتهى اللطف مع يسوع عندما منحوه جانبا واسعا من اجلالهم واحترامهم ، يساوي على أقل تقدير الاحترام الذي نكنه ليوحنا المعمدان . الا ان هذا الازدراء الانكليزي البولدوكي (١) نشأ عن سوء فهم تام لاسباب يسوع الخاصة التي

---

١ ــ Bulldog : فصيلة من الكلاب مشهورة في انكلترا ، ويرمز هذا النوع الى العناد المتناهي في الخلق الانكليزي .

دعته الى الخضوع من تلقاء نفسه لآلام التعذيب ، واحتماله سكرات الموت . ان العلماني رجل العصر (١) كثيرا ما تراه مصرا اصرارا شديدا على ان يرى يسوع كما يرى اي بشر آخر مثله وليس اكثر ، حتى لتراه يقع دون ان يدري في وهم مؤداه ان المسيح نفسه يشاطره وجهة نظره هذه ! لكن اسفار العهد الجديد (وهي المرجع الديني الاساسي لاي اعتقاد بوجود يسوع حقيقي) توضح لنا بأن يسوع آمن في ساعة موته بأنه هو المسيح اي الشخصية الالهية . وما دام الامر كذلك فمن السخف ان ننتقد الآن سلوكه امام بيلاطس ، كأنما هو مثل العقيد روزفلت او الاميرال فون تريبتز او (محمد بن عبد الله) نفسه . وسواء في ذلك أقبلت انت ايمانه بألوهيته بالتمام والكمال ، مثلما فعل القديس بطرس او رفضته بوصفه وهما من الاوهام ادى يسوع الى ان يتقبل العذاب طائعا ، ويضحي بحياته دون ان يبدي مقاومة لاعتقاده بأنه سيقوم من بين الموتى ويبعث ممجدا على الفور ، فعليك كذلك ان تقر بأنه لم يتصرف كما ينصرف الجبان او الشاة ، وانما اظهر جلدا بشريا عظيما في احتماله تجربة قاسية كان بمقدوره ان يدفعها عن نفسه بعين النجاح الذي حالفه عندما طرد الباعة والمرابين من الهيكل . « يسوع اللطيف الحليم الوديع !» (٢) انما هو اختراع عصري ضعيف ، بكّاء يقطر دموعا،

---

١ ـ استعملنا كلمة العلماني لتعبير Secularist وهو الشخص الذي يرفض معتقدات الدين التي تفوق الطبيعة ولا يقبل بعقيدة لا يمكن اخضاعها للعقل .

٢ ـ «ثم دخل يسوع الهيكل وطرد جميع الذين يبيعون ويشترون في الهيكل» وقلب مناضد الصيارفة ومقاعد باعة الحمام وهو يقول له «مكتوب بيتي بيت الصلاة وانتم تجعلونه مغارة لصوص» ـ (مشيرا الى كلام ارميا ٧-١١) وكان

لا سند يدعمه من الاناجيل . اما متّى الانجيلي (١) فتراه يتردد في الصاق مثل هذه الصفات بيهوذا المكابي (٢) ، كما الصقهـــا بيسوع . حتى لوقا (٣) الذي يقدم لنا يسوعا مؤدبا كريما ، فانه لا يلصق به صفة الخنوع والذلة . ان تصويره بشكل راعي بيعة هزلي الطابع اكثر اناة وصبرا من الدخول في مشاحنة مع شرطي، وتقديمه كموضع سخر الجميع وفكاهاتهم هذه الصورة قد تكون مفيدة في غرف الاطفال حيث تستخدم لتهدئة شغب الصغار، اما ان تكون مثل هذه الشخصية الخانعة محور اهتمام العالم ، فهو لعمري اسخف جدا من ان يكون موضع نقاش . قد يتكلم البالغون من الرجال والنساء بعطف عن انسان نكرة ضعيف الحيلة ينطق بمشاعر تستهوي النفس لا خير فيها عندما يستنجد به احدهم . على ان الناس لا يتبعونه ، ولا يفعلون ما يأمرهم به لانهم لا يريدون

الصيارفة يبدلون النقود لليهود الذين يريدون تقريب الذبائح لله . ويعتبر هذا العمل من اعمال العنف القليله التي اتاها المسيح . ففي رواية يوحنا الانجيلي انه كان يستعمل سوطا مجدولا لضربهم . واما عبارة «يســـــوع اللطيف ..، Gentle Jesus, meek and mild» فهي عنوان ترتيلة انكليزية شهيرة .

١ ـ كاتب احد الاناجيل الاربعه المعروف باسمه . كتب انجيله بالآرامية في حدود العام (٤٤ م) لمسيحيي فلسطين وفقد النص الارامي وبقيت ترجمتـــــه اليونانيـــه .

٢ ـ قائد يهودي ، تزعم اليهود في ثورتهم على السوريين . توفي في العام ١٦٠ ق.م .

٣ ـ لقي بولس الرسول في طراوس (٤٤ م) فصار رفيقا له ومعاونا ولصق به حتى استشهد بولس في روما ، كان طبيبا ولا نعرف اين عاش بعدها الا انه دوّن انجيله في حدود عام ٦٥ او ٦٧ ودوّن اعمال الرسل وهو جزء من العهد الجديد ما بين ٦٨ و٨٥ م.

مشاطرته فشله وعاره .

أكان يسوع شهيدا ؟

من المهم هنا ان نستبعد عن راسنا الفكرة التي اتخذ بعضنا التصريح بها ديدنا : وهي أن يسوع مات بسبب آرائه السياسية والاجتماعية . هناك عدد كبير من الذين استشهدوا في سبيل آراء من هذا النوع . الا ان يسوع لم يكن احدهم . اذ لم يــر جدوى في الشهادة اكثر مما راى غاليلو فيها ، كما تبين لنا مرة من اقواله (١) . وما أعدمه اليهود الحياة الا بسبب تجديفه اذ ادّعى انه الله . وبيلاطس الذي كانت مسألة هذا الادعاء بالنسبة له مجرد هراء يمت الى الشعبذات والخزعبلات بصلة مباشرة ، تركهم ينفذون فيه حكم الموت كأرخص وسيلة للابقاء على هدوئهم مسندا اليه بتهمة رسمية وهي ارتكابه جريمة الخيانة العظمى بحق روما حين زعم انه ملك اليهود (٢) . ان قضاته لم يتهموه ظلما او

---

١ ـ هناك الكثير في الاناجيل مما يدل على ان المسيح لم يكن يحبذ الاستسلام للموت في سبيل العقيدة (الشهادة) منها مضمون وصاياه لتلاميذه في (متى ف:١٠) وكهروبه واختفائه عند مقتل يوحنا المعمدان .

٢ ـ في عرف اليهود أن (ميسيحهم) الآتي سيكون ملكا عليهم. ولذلك كان عظيم الاحبار قيافا يريد ان يثبت ادعاء يسوع بانه المسيح . فلم ينكر (حسب قول متى) ولذلك لم يسعه ان ينكر عندما جيء به الى بيلاطس الذي نظر الى التهمة من وجهة النظر الرومانية لان الادعاء بالملك على اليهود يتضمن مناواة سلطان روما عليهم والعمل على تقويضه وهي تهمة تستحق الموت من وجهة النظر الرومانية .

زيفا ولم ينكروا عليه فرص الدفاع عن نفسه بصورة كاملة . فالاجراءات كانت قانونية وصحيحة الى آخر حد. وبيلاطس الذي كان ينظر في قضينه «استئنافا» وقف الى صفه وعطف عليه واحتقر قضاته الأوَل ، وكان على ما يبدو شديد الرغبة في ان يصون حياته ، الا ان يسوع أقر بالتهمة بدل انكارها وهو يعلم يقينا ما هو مقدم عليه . فقد اعلن عن ذلك قبلا وقام بالعمل نفسه فانفصل عنه بعض تلاميذه ورُجم في الشوارع بسبب ذلك . انه لم يكن يكذب بل كان يؤمن حرفيا بما يقول وكان من الطبيعي جدا ان يتهول عظيم الكهنة اقواله : هوذا عظيم احبار دَيّن يواجه واعظا جماهيريا من وعاظ الشوارع الهراطقة ناطقا بما يعتبره هو كفرا شنيعا وقحا . اما الحقيقة وهو ان هذا الكفر الوقح كان بالنسبة ليسوع تعريرا بسيطا لواقع ، وان هذا (الواقع) بات منذ ذلك الحين فهو قبلة انظار كل شعوب الغرب على علاّته ، فلا تضمن قط طعنا في صحة الاجراءات المتخذة ضد يسوع ولا تعطينا الحق في اعتبار حنّان وقيافا أسوأ من رئيس اساقفة كانتربري او عميد كلية ايتون . ولو ان الاتهام الذي وجه الى يسوع وُجه اليه الآن في محكمة عاديه ، فسنقوم هذه المحكمة بعرضه على طبيبين لاجراء الفحص عليه ، وسيجد هذان الطبيبان ان وَهما استولى على عقله ، وستقرر المحكمة بناء على ذلك بأن المتهم لا يملك القدرة على الدفاع عن نفسه. هذا هو الفرق برمنه! على اني ارجو منك ان تلاحظ هذا ، وهو انه عندما يتهم احدهم امام احدى محاكمنا بأنه مُصر على الزعم بأنه ضابط عائد من جبهة القتال لتقلّد وسام (صليب فكتوريا) (١) من يد الملك ! في حين انه عامل ميكانيكي (وتلك قضية وقعت فعلا قبل فترة من

١ ـ هو ارفع وسام حربي في انكلترا .

الزمن) ، فلن يفكر احد في معاملته معاملة شخص مصاب بوهم ، بل سيعاقب بجريمة انتحاله صفة كاذبة ، لان ادعاءه قابل التصديق فهو اذن ادعاء أفضل من سابقه . والامر كذلك بالضبط حين ادّعى المسيح بالالوهية . ولما كان عظيم الكهنة ينتظر مجيء المسيح فعلا ، فقد اضطر الى اعتبار هذا الادعاء من يسوع جدّيا ومقصودا ، فهو والحالة هذه قد يضلل الناس ويسلمهم الى متاهة خطيرة جدا ولذلك عامل يسوع معاملة الدعي الكاذب والكافر المجدف ، في حين كان يجب ان يعامله معاملة المخبول المهووس .

الاناجيل ، من غير تحامل

كل هذا سيغدو لنا واضحا عند قراءة الاناجيل من دون تحامل او إغراض . عندما كنت صغيرا ما قرأتها الا وانتاب تفكيري اضطراب عجيب . وبلغ بي الاضطراب حدا من الارتباك المطلق ، بحيث تطلب امر قراءتها مني مجددا حالة روحية خاصة ! كان يسوع طفلا وهو في الوقت نفسه اكبر سنا من الخليقة . كان قابلا للرجم والاضطهاد ، والجلد والقتل وكان في الوقت ذاته إلها خالدا غير محدود السلطان قادرا على احياء الموتى واستدعاء «فيالق» من الملائكة وملايين لمعونته . وكل من ينتابه الشك في هذه الامور بأي وجه من الوجوه ، يعدّ آثما : وهكذا يؤول بك الامر الى انك لا تعود تقلب وجوه الراي في شأنه ، ولا تقرأ عنه الا عندما تضطر اضطرارا . لما سمعت قصص الانجيل تتلى في الكنيسة ، ولما تلقيتها على ايدي الشعراء والرسامين ، خرجت من محتواها بانطباع قد يندهش له الصيني الذي كان قد قرأ

المجموعة كلها دون تحيز او إغراض (١) ! والمرتابون الذين يغلب عليهم الحذر بصورة خاصة ، هم ايضا يُجلِسون الكتاب المقدس على مقعد الاتهام ، ويقرأون الاناجيل بقصد استخلاص التناقض والخلاف بين روايات الاناجيل الاربع ليثبتوا ان كتّابها لا يقلون عن صحفيي يوم امس تعرضا للخطأ . هذا كله طرأ عليه تغيير عظيم خلال جيلين من الزمن . واليوم قلّما نجد من يقرأ التوراة، حتى ان لغة النسخة المجازة صارت تهجر بسرعة ، حتى في الولايات المتحدة حيث ما زالت الترجمة العتيقة التقليدية «لسِفر الاسفار ! وكتاب الكتب !» متسكعة متشبثة بقوة تفوق تشبثها بأي مكان آخر باستثناء «اولستر» على ارجح تقدير ! ومهما بين من امر فان الترجمات الانكليزية الحديثة قد عَملت كيفما اتفق مستهدفة بذلك انقاذ وضوح هذا الكتاب المقدس ليس الا . ومن السهل اليوم ان نجد كثيرا من المثقفين الذين لم يقرأوا (العهد الجديد) ، ومن الممكن ان نحاول معهم تجربة دفعهم الى قراءة الاناجيل لالتقاط ما يسعهم التقاطه من تاريخ المسيح وخلقِه وافكاره .

الاناجيل في هذه الايام غامضة عند المستجدّين

بيد انه لا يفيد ان تقرأ الاناجيل بعقلية لم تتهيأ الا لتقبل سيرة حياة غوته مثلا ! انك لن تفهم منها شيئا ، ولن تستطيع

---

١ – يقصد شو ان الرجل الصيني الذي اعتاد قراءة (كونفوشيوس) واتبع عقيدته الدينية التي تقوم على مفاهيم شبيهة ببعض ما ورد في الانجيل قد يدهش ايضا من امور يجدها في الانجيل تخالف عقيدته .

الاستمرار في القراءة وسيدركك ملل. ونفاد صبر يمنعانك من المواصلة الدائبة في المطالعة الا اذا كنت على بعض معرفه بتاريخ تطبيق الخيال الانساني على الدين . قبل مدة ليست بالطويلة ، سألت احد الكتاب الذين امتازوا بكفاءة ثقافية عالية : هل قام في صباه بدراسة للاناجيل ؟ فأجابني انه حاول ذلك في وقت متأخر ؛ واضاف يقول : «لكني وجدت الامر كله تافها ، حتى اني لم استطع الصبر عليه» ولما كنت اكره ان أبعث احدا ما الى الاناجيل ليعود الي بهذه النتائج ، فيحسن بي أن أقدم مختصرا للمقدار المنطلب من التاريخ الديني لجعل الاناجيل وتصرفات يسوع ومصيره الاخير مواضيع مفهومة شيقة .

دنيوية الاغلبية

اول خطأ عام يجب الانتباه اليه والتخلص منه ، هو القول ان الجنس البشري يتألف من كتلة عظيمة من المتدينين وقلة من الملحدين الشاذين الغريبي الاطوار . وفي الواقع ان العالم يحتوي كتلة هائلة من الناس المهتمين بأمور الدنيا ، ونسبة مئوية صغيرة جدا من الاشخاص المنصرفين انصرافا تاما عميقا الى الدين والمنشغلين بأمر ارواحهم وأرواح غيرهم من البشر . ومعظم الفريق الثاني يتألف من مؤيدي الديانة السائدة تأييدا يتميز بحرارة العاطفة ، ومن مهاجمي الديانة السائدة بعين الحرارة والحماسة العاطفية . اما الفلاسفة الاصلاء فعددهم قليل جدا . ولذلك فلن تجد عندك شعبا من ملايين الويزليين (١) ومن توم بين

---

١ ـ نسبة الى جون ويزلي John wesley (١٧٠٣ ـ ١٧٩١) وهو احد كبار الواعظين المسيحيين ومؤسس المذهب الميثودي Methodist

واحد (١) وانما ستجد مليون (مستر رجل متزن دنيوي) (٢) و(ويزليا) واحدا مع أتباعه القلة ، و(توم بينا) واحدا مع أتباع أقل . اما الديّنون الغيورون فهم فئة اخرى لا علاقة لها بهؤلاء فئة عاطفية لو لم يتفوق عليها الدنيويون تفوقا عدديا لقلبوا الدنيا عاليها سافلها ، اذ نال الرسول بولس ما يستاهل من تأنيب لاعتزامه ذلك (٣) . ان قليلا من الناس يتمكنون ان يحصوا من بين اصدقائهم الشخصيين ملحدا واحدا ، او اخا بلايمونيا (٤) واحدا وان لم يؤد انقلاب ديني فينا الى الملاذ بالمجتمعات الصغيرة التي تنتمي اليها تلك «الطيور النادرة» فسنقضي حيواتنا مع أناس

---

١ ـ Tom Paine (١٨٠٩ ـ ١٨٢٧) كاتب انكليزي ديني وسياسي ، عاش في امريكا . من كتبه الشهيرة «حقوق الانسان» و«تأملات في الثورة الفرنسيه» ضمنه آراء سياسية ثورية كانت مصدرا ونواة لمعظم التشريعات الديمقراطية ، وما زال بعض المحافظين المتزمين الى يومنا هذا يعدون كتاباته خطرة على الافكار .

٢ ـ الاسم بالاصل هو Mr. worldly wiseman ، وهو احد شخصيات «بوبيان» في كتابه (مسيرة الحاج The Pilgrim's Progress) الشهير ، وهو كتاب على شكل قصة يمثل رحله جهاد للنفس البشرية للوصول الى الخلاص والمغفرة .

٣ ـ يرى بعض المفكرين ومن جملتهم شو ان بولس صاغ من تعاليم يسوع ومن افكاره نوعا من العقيدة المسيحية يختلف عن الاهداف التي رمى اليها يسوع من تعاليمه .

٤ ـ نسبه الى مدينة (بلايموث Plymouth) في انكلترا . ففيها نشأ (١٨٣٠) مذهب مسيحي صارم ، لا يعتقد اشياعه بغير التوراة دليلا وهاديا لهم في الايمان وفي الآداب الاجتماعية . غلبت عليهم الزهادة والتقشف والبعد عن اللذائذ والتسليات . واستغنوا عن الكهنة والرعاة .

ذوي ضمائر لا تحس . مع اناس ذوي جوع وعطش لا الى الحقيقة، بل الى فاخر الطعام ، الى لذة الراحة ، وامتياز المركز الاجتماعي الى شريكات العمر الجميلات ، والرفاء والمسرات والرفعة والاحترام ، وبمختصر القول بين أناس ذوي جوع وعطش للحب وللمال ، كائنا ما كانت العقائد التي يرددونها والمعابد التي يقدمون لها فرائض التجلة ويلبسون لها ثياب الاحد . بالنسبة الى هؤلاء الناس ؛ كل أمثولة وحكمة هي جيدة كسواها ، شريطة ان يكونوا متعودين عليها قادرين على احتمال قيودها دون شعور بضيق او تعاسة . ولاجل الابقاء على تلك الامثولة تراهم يحاربون، وينزلون العقاب بغيرهم ويرغمون أنوف الناس الآخرين في التراب دون وازع او تأنيب ضمير ! هؤلاء الفلستيون قد لا يكونون «ملح الارض» ، على انهم في الواقع مادة الحضارة وأرومتها . هؤلاء ، ينقذون المجتمع من الدمار بتخريجهم المجرمين والفاتحين ، فضلا عن تصديرهم اشخاصا من أمثال سافونارولا ونبردوللنغ . وبما انهم يدركون بذكائهم العظيم ان قليلا من الدين ، يفيد الاطفال ، ويخدم مكارم الاخلاق ، ويبقي الفقراء في راحة ودعة ، او في خوف ورهبة بالوعد بأحسن الجزاء في السماء او بالوعيد بأشد العذاب في السعير ، فلذلك تراهم يشجعون الاتقياء الى حد معين لا يتعداه . فمثلا لو قال سافونارولا لسيدات فلورنسا بأنه يجب عليهن ان ينزعن جواهرهن وحليهن ويقربنها قربانا وتقدمة لله ، لسارع ذوو الحل والعقد الى عرض قلنسوة الكردينال عليه وأثنوا عليه ورفعوه الى مقام القداسة ، الا انه اراد ان يحملهم بطريق الاقناع ان يفعلوا ذلك من تلقاء انفسهم فاحتقروه بوصفه واحدا من المشاغبين الذين يقلقون الراحة العامة .

دين الاقلية «الخلاصيون»

ان دين الاقلية المتسامحة كان دوما وأساسا هو الدين

الاصيل بذاته . ولهذا لا يتأثر تأثيرا كبيرا بأي تبدل قد يطرأ على اسمه وشكله ، ولهذا لا يشق على شعب كالانكليز بلغ درجة عالية من الحضارة ان يهدي الزنوج الى الدين الذي يعتنقه ، الا انه لا يستطيع ان يهدي المسلمين او اليهود . يجد الزنوج في مذهب «الخلاص» العصري «نسخة» تمنحه قسطا من الراحة يزيد عما تمنحه عقيدته الساذجة . الا ان المسلم واليهودي لا يجد في تلكم النسخة راحة وتعزية تزيدان عما في «نسختي» دينهما . لقد أصيب المجاهد الصليبي بدهشة عظيمة عندما وجد المسلم متدينا ورعا مثله تماما ، بل اكثر منه مدنية وتهذيبا مما كان يظن . هذا وليس لدى المسيحي اللاتيني ما يقدمه للمسيحي الارثوذكسي، مما لم يسبق للمسيحية الارثوذكسية أن زودته به ، فكلاهما بالاصل «خلاصيّان» .

الا دعنا نتعقب هذا الدين ، دين «الخلاص» أو «الفداء» منذ البداية . هنالك اشياء كثيرة جدا تحصل دائما مما لا يرغب فيه المرء الا اذا استحدثه هو بنفسه ، ومع ذلك فالموت والطواعين والعواصف ، والآفات الطبيعية ، والفيضانات ، وشروق الشمس وغروبها والنمو ، والحصاد ، والتحلل ومعجزة السماء المطرزة بالنجوم فوقنا ، وقانون (كانت) (١) الخلقي في باطننا ، هذا كله

---

١ ــ Immanuel Kant (١٧٢٤ ــ ١٨٠٤) فيلسوف مثالي الماني مؤلف «نقد العقل الخالص» . و«القانون» الذي يشير اليه شو هو محاولة (كانت) ان يثبت ان في طبيعة العقل الغريزي ما يمكنه من الوصول الى بعض المعرفة دون اعتماده على ما تأتي به الحواس من العالم الخارجي اي ان تلك المعرفة لا تأتي من التجارب وانما هي كائنة في العقل ، وان الانسان لا يدرك ماهيه الاشياء وجواهرها وانما يدرك ظواهرها الحسية في زمان ومكان مخصوصين . وقال في «نقد العقل العملي» ان الدين لا يمكن ان يخضع لاسس علمية وعقلية ، وانه يرتكز على دعامة من الاخلاق .

يحملنا على الاستنتاج بأن «احدا» ما يتولاها جميعا ، او ان احدا ما يقوم بعمل الخير ، وآخر بعمل الشر ، او ان جيوشا من اناس غير مرئيين من الاشرار والاخيار ، تتولى عملها . ومن ثم وجب عليك ان تفترض كينونة لما يطلق عليه «آلهة» و«ملائكة» و«جنًّا»، وانك لتعمد الى استرضاء هذه «القوى» بالهدايا واستمالتها بالتقدمات والقرابين ، ومجاملتها بالملق والمداهنة وتقليدها آيات الحمد والثناء ، ثم ان قانون «كانت» الخلقي في اعماقك يدعوك الى تفهم إلهك بوصفك قاضيا عادلا ، وتحاول ايضا رشوته وافساده بالهدايا والمداهنة . ان هذا يبدو لنا امرا شنيعا ، غير ان احتجاجنا عليه هو ظاهرة حديثة جدا . ففي عصر لا يبعد عن عصر شكسبير كان من الامور الطبيعية جدا ان يقدم الخصوم المتداعون هدايا للقضاة الذين ينظرون في دعاواهم وهم من البشر طبعا ! في حين ان ادّراء السخط الالهي بدفع المال النقدي للكهنة او للكنيسة «المستصلحة» (١) التى تدّعي مقاومتها هذا التصرف بمشاركتها في اعمال الصدقات وتوزيع الخيرات وبناء بيوت الله وما اشبه ــ ما زال يجري ويقوم على قدم وساق . ومضارها العملية هي انها تحول تماما بين الفقراء وبين كل امل لهم في البركة الالهية ، وتسهل الامور كثيرا للاغنياء . وهذا ما يعجل بالانتقاد الاخلاقي انتقادا بلغ بالفقراء حدا انهم سرعان ما وجدوا القانون الخلقي فيهم يثور على فكرة رشوة الآلهة بالذهب والعطايا وان ظلوا على أتم استعداد لرشوته بنقود المدح والثناء الورقية!(٢)

---

١ ــ اعني الفرق والطوائف والمذاهب التي قبلت بالاصلاح الديني بدرجات متفاوتة .

٢ ــ في هذا القول نكتة لاذعة من تلك التي اشتهرت بها كتابات شو ، فهو يعتبر النقود الورقية رخيصة بحسب قيمتها الحقيقية لا الاسمية ويشبه رخص المديح والثناء الفارغ برخصها .

وباحتراف عمل الندامة! وعلى هذا الاساس ستجد ان الدين يمكن ان يظل قرونا عدة في المجتمعات البدائية كما هو دون ان يعتريه تغيير ، حيث ظروف الحياة لا تترك مجالا لسيادة الغنى او الفقر، وحيث عملية تقديم الكفارة للقوى الفائقة للطبيعة هي ضمن قابليات أقل القرويين شأنا مثلما هي ضمن قابلية رئيس القرية . لكن ، ما ان تتقبل المدنية التجارية ، وما ان تقوم «الرأسمالية» بتقسيم الناس الى قلة من الاغنياء وكثرة من الفقراء المعدمين الذين لا يعيشون الا بشق الانفس ، حتى تنجم حركة اصلاح ديني بين الفقراء ، ستكون هذه الحركة بجوهرها حركة تهدف «خلاصا رخيصا» او مجانيا ! تماما . ولكي نفهم ماذا يقصد الفقراء بالفداء ، علينا ان نشرح بايجاز ما هو المقصود بالعدالة ؟

الفرق بين العقاب وبين الكفارة

ان فكرة العدالة البدائية بأبسط احوالها من وجهة مشروعية الانتقام ومن وجهة التفكير بموضوع التضحية ، انما تنبع بكلتا وصفيها هذين من قاعدة : «اسودان يُخرجان ابيض واحدا !» ومن قاعدة «اذا وقع اذى ، فيجب ان يدفع ثمنه اذى مقابلا» . ويبدو من الطبيعي المقبول عند اغلبية الفلستيين النفعيين ان التعويض عن هذا الاذى يجب ان يقع على كاهل الجاني لما لذلك من التأثير الكابح الرادع لغيره ، ولكل من قد تسول له نفسه ارتكاب المعاصي . ان لحظة قصيرة واحدة من التأمل تظهر لنا بأن هذا «التطبيق الفلستي» يفسد الامر كله . فمثلا سفك دم البريء لا يمكن ان يوازن بسفك دم العاصي . والتضحية بمجرم ابتغاء مرضاة الله بسبب قتله احد عباده البررة ، يشبه تضحيتك بشاة جرباء ، او بثور مصاب بطاعون الماشية (داء ابي هدلان) . ومن

شأن مثل هذه التضحية اثارةالسخط الإلهي بدل تهدئته. وبعملنا هذا نتقدم الى الله على شكل قربان ، ترضية لحقدنا ، وشفاء لعلة انتقادنا ، بعملية تتضمن حماية ارواحنا بالـــذات ، من دون ان يكلفنا ذلك اية خسارة . والكلفة هي جوهر التضحية او الكفارة . ومهما بلغ نجاح النفعيين في ارباك هذه المسائل عند تطبيقهـــم اياها وممارستهم لها ، فهي في مفهوم (الخلاصيين) مختلفة لا بل متضادة . عندما قالت بنت اخ البارون في رواية (ديكنز) (١) وقد اربكها فشل الشرطة في العثور على قاتل محامي عمها : « الاوفق كثيرا أن يشنق احد بالوهم من ان لا يشنق احد !» ولم يكـــن اصرارها هذا مجرد شعور عام كثير الشيوع في النفوس ، وانما كانت في الواقع تقف متأرجحة عند حافة الراي الخلاصي الاقل شيوعا والنادر وجودا ومنطوقه : «من الخير كثيرا شنق شخص بالوهم» وهذا يعني في واقع الحال ان الشخص المتوهم به هو اصلح الناس للشنق . والنقطة هي نقطة جوهرية لان المسيحية التاريخية (٢) ستبقى غامضة على انها منا حتى ندرسها دراسة استيعاب . زد على هذا ان اولئك الذين لا يهتمون قلامة ظفـــر

---

١ — ان (بنت اخ البارون) المقصودة هي المدعوة «فولمينا ديدلوك» بنت اخ سر ليشستر ديدلوك في رواية شارلس ديكنز المسماة «البيت الكئيب» Bleak House (ألفها في ١٨٥٣) . تذكر فولمينا هذه في الفصل الثالث والخمسين من الرواية القول الذي اقتبسه شو هنا .

٢ — يقصد مسيحية الاناجيل الاربعة التي تفصح عنها تعاليم المسيح والنبوءات التي عزيت في أسفار التوراة وفسرت طبقا لها . وهنا يفصح شو بصورة غير مباشرة عن رأيه الذي ستحده مفصلا فيما بعد — حول ان المسيحية التي جاء بها الرسل ووصلتنا تختلف وأحيانا تتناقض مع (المسيحية التاريخية) مسيحية الاناجيل .

بالمسيحية التاريخية ، قد يطلقون سيقانهم للريح راكضين ليقعوا في خطأ افتراضهم بأننا ان اطرحنا «الثأر» جانبا وعاملنا القتلة كما عامل الله قايين تماما (أعني الاعفاء من العقاب ، ووضع وسم عليهم يدل على انهم لا يستأهلون ان يضحى بهم ، وتركهم يواجهون العالم بهذا الوسم) فلسوف نتخلص من العقوبة ومن القربان معا. وبعكس ما نظن ، فهذا لا يستتبع حتما شعورنا بأن (كفارة القتل) قد تؤدي على أغلب الاحتمال الى سليم شخص ما بريء (كلما كان أكثر براءة كلما كان أفضل) الى قتلة شنعاء لموازنة الحساب مع العدالة الالهية .

الخلاص اولا امتياز طبقي ؛ وعلاجه

سنظل نشعر بأننا خلاصيون من دون حاجة تلجئنا الى تضحية والى ضحية ، حتى وأن يقرر الفقراء ان طريقة«الخلاص» بتقديم خراف وجداء او ذهب الى المذبح ، يجب اعتباره عملا خاطئا لان حالتهم المالية لا تعينهم على ذلك . او انه من العبث محاولتنا الاستعاضة عن تلكم الهبات بالطقوس الصوفية التي لا تكلف مالا ، ولا تحمل عبئا ، مثل الختان ، او مثل المعمودية كبديل عن الختان وسيظل شعور بالعدالة فينا يتطلب «كفارة» او «تضحية» او ايجاد من يكابد عنا او يعاني بسبب آثامنا التي اجترحناها . ان هذا يترك الفقير المعدم في ورطته الاولى . اذ كم سيتعذر عليه ان يجد جارا له يحمل عنه وزره ، ويكابد عنه آلامه بمحض اختياره (وهو الذي عجز عن تأمين تقديم الخراف والجداء وشواقل الذهب) جار يقول له بكل محبة وطيبة خاطر « لقد ارتكبت جريمة قتل فلا بأس عليك يا صاح ولا تخش شيئا لاني مستعد لاقدم عنقي بدل عنقك للمشنقة تكفيرا عن جريمتك !»

وهنا يجب ان يسرع «يسوع خيالنا» الى نجدتنا . فبدلا من الاستسلام الى القنوط في اصرارنا عبثا على كفارة منفصلة بفدية منفصلة لكل اثم او جريمة ، لِم لا يكون عندنا كفارة عظيمة واحدة بفدية عظيمة واحدة ، حتى تتم تسوية الحساب عن كل ذنوب العالم صفقة واحدة ؟ ليس ثم اسهل من هذا ، او أرخص . ف «النير سهل» و«الحمل خفيف» (١) وكل ما ينبغي لك عمله هو ان تجد الفدية ، او ان تؤمن — بعد ان يخترعها لك خيالك بأن الصفقة المعقودة ، هي صفقة معقولة لا غبار عليها ، وانك ستؤمن «خلاصك» ولا تعود الخراف والجداء تسيل لها دماء ، وستنقض ابنية الهياكل التي تتطلب الهدايا الثمينة والاضاحي المتواصلة المتجددة . وستقوم اذ ذاك بيعة «الفادي الاوحد» مشمخرة ، وتثبت اصول «الكفارة الواحدة» على انقاض المعابد القديمة وتغدو فهي بيعة المسيح الواحدة التي لا شريك لها .

الكفارة الرجعية (٢) وانتظار الفادي

على ان هذا كله لا ينم فورا . فبين «دين الاغنياء» التالد الكثير التكاليف ، وبين دين الفقراء الطارف المجاني توجد فترة

---

١ — اشارة الى الآيات الواردة في الانجيل : في ف١١ من انجيل متى : «تعالوا الي ايها المرهقون والمثقلون جميعا فاني اريحكم . احملوا نيري وتتلمذوا لي . انا الوديع المتواضع القلب ، تجدوا الراحة في نفوسكم ، لان نيري لطيف وحملي خفيف» و(النير) هو ما يجعل في عنق الثور عند الحراثة، وهو هنا مجاز ومعناه وصايا المسيح وتعاليمه .

٢ — اي الكفارة ذات الاثر الرجعي .

«خلو الكرسي» ! لا تجد خلالها اثرا «للفادي» المنشود واذا ما كان الخيال قد توصل اليه، فذلك لان مجيئه متوقع تحت اسم (يسوع) او (المسيح) او (بالدور الجميل) (١) او ما شئت من اسماء مماثلة. وبما انه لم يجيء بعد فلا داعي للخطاة ان يقنطوا ويستسلموا لليأس . الحق يقال انهم لا يستطيعون القول ، كما نقول نحن «جاء المسيح وافتدانا» الا ان بوسعهم القول : «سيأتي المسيح حتما ويفتدينا» ذلك لان «الكفارة» ذات اثر رجعي ، وسيكون ذلك جزاء على اية حال . هناك فترات تمر بالشعوب والامم تراها تفور وتغلي غليانا بالترقب والتشوف فتصرخ عاليا بنبوءة « قدوم الفادي» على السنة شعرائها وملهميها ولاجل ان نشعر بجو مماثل، ما علينا الا ان نتناول التوراة ونقرأ نبوءة «اشعياء» (٢) بوصفها نهاية لفترة ثائرة كالفترة التي تحدثنا عنها . ثم نعود لنقرأ «لوقا ويوحنا» بوصفهما نهاية لفترة اخرى .

تمام المشروع على يد لوثر وكالفن (٣)

اننا لنرى ديننا يتطور تطورا طريفا ، الا انه تطور غير مفهوم.

---

١ ـ Baldur the Beautiful هو ابن اودين Odèn اله الشمس في الاساطير الاسكندينافية .

٢ ـ اشعيا هو احد كتاب التوراة (العهد القديم) ويعرف سفره (بنبوءة اشعيا) كتب في القرن الثامن ق.م ويعد احد كبار انبياء اسرائيل الاربعة . امتازت نبؤته بشدتها وقوة شاعريتها . وقد ذكر (ملافنة) المسيحية انه تنبأ بولادة المسيح يسوع من العذراء مريم .

٣ ـ ان مارتن لوثر الالماني Martin Luther ١٤٨٣ ـ ١٥٤٦ اللاهوتي الالماني زعيم الاصلاح الديني البروتستانتي هو اشهر من ان يُعرّف. وكذلك جوهان كالفن Johannes Calvin ١٥٠٩ ـ ١٥٦٤ فهو لاهوتي ومصلح ديني سويسري ـ

نراه ينقلب من محاولات سخيفة بدائية ساذجة لاسترضاء قوى الطبيعة المدمرة ، الى فقه (لاهوت) واسع الحيلة تحفّ به شعائر كثيرة التكاليف من التضحية ، يقدر عليها الاغنياء فحسب بوصفها نوعا من انواع الترف ليتحول اخيرا الى دين لوثر وكالفن . ولا سبيل لنا الى الانكار بأن الانماط الاولى منه كانت تتضمن تضحيات حقيقية تماما . فلم تكن الاضاحي والقرابين دائما أضاحي رعوية كهنوتية ، كما لم تكن كذلك عموما . في الهند يعرض الرجال جلودهم للضرب طوعا ، فيعذبو انفسهم تعذيبا مروعا ليبلغوا درجة القداسة . وفي بلاد الغرب كان القديسون يذهلون الناس ، بصرامتهم وأخذ انفسهم بالشدة في جلد أجسامهم بالسياط ؛ واعترافاتهم وسهرهم المتواصل . الا ان لوثر انقذنا من هذا كله. فاصلاحاته كانت انتصارا للخيال وانتصارا لرخص الاسعار ! لانه جاءك «بخلاص» كامل ولم يتطلب ثمنا له منك غير الايمان . اذا حللنا عمل لوتر التحليل العلمي الاجتماعي الذي نعرفه فسنجد انه لم يكن يعلم ماذا يفعل ! على ان غريزته خدمته اكثر مما تستطيع المعرفة خدمته . والغريزة بالاحرى ، لا القوى اللاهوتية هي التي جعلته يتمسك بعزم شديد ـ بالمسوغ عن طريق الايمان. فالايمان عنده هو الورقة الرابحة التي غلب بها البابا ، او كما وضعها هو بالصيغة : «العلامة التي يجب ان تتم بها الغلبة» . قد يمكن القول انه الغى «رسم الدخولية» الى السماء (١) . على

فرنسي. كانت صرامته الدينية وأخذ أتباعه بالشدة سببا ادى لوصف الكالفينية بـ «الايمان الخالي من اية مسرّة» .

١ ــ كان المبدأ (احتجاج) لوثر على ما يدعى «بصكوك الغفران» وهي براءات كان قد اصدرها البابا تضمن لمن يبتاع منها ، غفرانا لذنوبه وصعودا مباشرا الى الجنة. وهذا ما يقصده شو بقوله «رسم الدخولية» .

ان مار بولس الرسول نادى بهذا في الواقع ، لكن لوثر وكالفن حققاه .

« جون بارلي كورن » (١)

على ان هناك «صفحة» اخرى في تاريخ الدين يجب ان تدرس وتهضم قبل ان تفهم سيرة حياة يسوع فهما تاما . والناس الذين يملكون جلدا وصبرا على قراءة الكتب الضخمة يجدون هذه «الصفحة» في كتاب «فريزر» الموسوم (بالغصن الذهبي) . والناس الاكثر من هؤلاء سذاجة يجدونها في اغنية (جون بارلي كورن) الريفية التي غشيت اليوم غرف استقبال هواتنا ، ضمن مجموعة من أغاني سومرست شاير الشعبية لمؤلفها مستر سيسيل شارب . سنتعلم من مؤلف فريزر العظيم ، كيف ان المنطق البدائي نفسه هو الذي يجعل الانكليزي يؤمن اليوم بأن اكله البفتيك (٢) يكسبه قوة الثور وشجاعته ! وكيف يواجه هذا الزعم أخزى الهزائم امام المصارعين والعدائين وراكبي الدراجات النباتيين الذين لا يذوقون لحما . وهو المنطق الذي كان يقود ويهدي اكثرية من أدرك الله بوصفه قابلا للتجسد ، وجعلهم

---

١ – «جون بارليكورن» عنوان قصيدة فولكلورية بهذا الاسم وهي مأخوذة من بارلي : شعير ، وكورن وهي حبة او قمحة . والتعبير بأجمعه يعني بالكلام الدارج «الويسكي» لانه يستقطر من الشعير . وشو يشير الى عملية التحول هذه بصورة خاصة في عبارته التالية .

٢ – علينا ان ننوه هنا بأن شو نباتي لا ياكل اللحوم ، فهو لهذا السبب مغرض تجاه البفتيك !

يعتقدون بأن في امكانهم اقتباس شرارة من ألوهيته بأكل لحمه وشرب دمه . ومن اغنية (جون بارلي كورن) تعلم كيف ان معجزة «البذرة والنمو والحصاد» ما زالت أروع كل المعجزات ، وما زالت حتى الآن أعصى على التفسير والفهم كما كانت . ان هذه المعجزة علّمت الفلاح الساذج ــ وعلينا ان نؤكد هذا ــ بأن الله موجود في البذرة ، وانه خالد لا يموت . فاصبح من مقتضى الربوبية والحالة هذه ــ انك لا تستطيع قتلها مهما حاولت . عندما تطمر بذرة الربوبية هذه ، ستبعث ثانية ، بحياة وجمال متجددين مانحة البشرية حياة خالدة سرمدية شريطة ان تؤكل وتشرب ثم تذبح وتدفن لتبعث حية مرة بعد اخرى الى ما لا نهاية . ولك ، بل عليك في الواقع ان تستخدم ما اطلق عليه جون بارلي كورن « البربرية الصحيحة » right barbarouslee (١) وان «تقطعه من عند الركبة بمناجلك وتجلده بسياطك وتدفنه في التراب» فلا يبدي مقاومة ولا عتابا . بل سيبعث حيا بجمال ذهبي ، وسط دفقات عظيمة من اشعة الشمس وتغريد العنادل فيخلصك ويجدد لك حياتك . ومن جدل هاتين الاسطورتين معا ومزجهما باللهفة لمجيئه ، سيكون خالدا مؤبدا وسيقدم لنا جسده لنأكله ودمه لنشربه ، وسيثبت ألوهيته باحتمال ميتة مروعة بربرية دون ان يتمرد أو يقاوم . ليقوم بعدها من بين الاموات ويعود الى العالم ممجدا ، باعتباره مانحا الحياة الابدية .

---

١ ــ مثل هذا المصطلح لا تجده في المعاجم الانكليزية فهو من عمل ونحت صاحبه ، اتخذه للتعبير عن فكرة تجدد نمو البذرة . كما يتضح المقصود من العبارة التي تلت التعبير . فالقمح عند تكامل نمو السنبلة يقطع من عند الركبة ثم يُدرس ويدق ليخرج منها الحب الذي يزرع وتهال عليه التربة ويدفن لينمو مرة اخرى .

ارتقاب نهاية العالم

على ان ثمة اعتقادا ثابتا يضايق افكار المتدينين ويشد عليها خناقا منذ ان انبثّ الدين بين الفقراء او بالاحرى منذ ان انتجت المدنية التجارية طبقة من المعدمين المحرومة حرمانا تاما من متع الحياة . ومجمل هذا الاعتقاد ان نهاية العالم قد اقتربت وباتت فهي على قاب قوسين او ادنى منا . وان العالم لن يلبث ان يفنى ويعقبه فورا مملكة السعادة والعدل والرغد التي لن يكون للاغنياء فيها نصيب ولا للظالمين والمضطهدين . هذه الامنية نعرفها جميعا وهي من الاماني المألوفة . لا يعدم اكثرنا ان يجد قريبا له تقيا ورعا يرى في كل نكبة عظيمة اشارة الى نهاية العالم الوشيكة . والايدي تتداول في هذه الايام وبصورة مستمرة ، كراريس تنذر بهذا النبأ ، بل انك لواجد اعلانات بهذا المنحى ـ ينشرها في الصحف ويدفع اجر نشرها أولئك المؤمنون ، المروّعون بلا اباليه اللادينيين ، هذه الاعلانات كلها تتحدث عن حتمية المصير ودنوه. والواعظون بالقيامة والبعث اليوم هم هم كما كانوا ايام يوحنا المعمدان يندر ان يكفوا عن انذار رعيتهم بان «يرتقبوا او يصلوا» حيث ان «اليوم الاعظم» يسترق اليهم الخطى مثل لص الليل ، في دنيا ملئت بالخبائث والشرور ، وانه لا يمكن ان يتأخر طويلا. هذا الاعتقاد يتفق مع الرأي (البارلي ـ كورني) القائل بالمجيء الثاني . وهكذا ترى الحادثين يتضحان اخيرا . وثم الجانب الآخر المصطنع اكثر من سواه من هذا الاعتقاد وفيه يتجسم الخوف المتأصل . ان الحاكم الذي يلجأ الى ترويج فكرة المصحح السماوي والامل بالراحة الابدية لتعزية المعدمين والابتعاد بهم عن فكرة الثورة والانتفاض ، يستأصل ايضا الاشرار ، ويقطع دابرهم بتهديدهم بنار جهنم . واننا لنجد (محمدا بن عبد الله) في القرآن يميل اكثر فاكثر الى هذه الطريقة من الحكم . وقد أيدت

التجربة اعتقاده الواضح بأن الحكم مستحيل بغير هذا ، وفي درجات معينة من المدنية . وسنرى فيما يلي ان الخضوع لهذه العقيدة يؤدي الى ميل شديد للايمان «بالفادي» ما دامت تضيف الى تأنيب الضمير (قلما يشعر بوطأته غلاظ القلوب) خوفا اكيدا من العذاب الابدي الهائل الذي لا يمكن وصفه .

شرف الابوة الالهية

هنالك تقليد أسطوري يجب علينا ملاحظته واعطاؤه حقه من التأمل : وهو ان من كمال المديح لملك من الملوك، قولك بانه لم يولد من انسان بل من إله . والحكاية كما وردت عادة واحدة تقريبا: تذهب أم هذا الملك الى معبد ابوللو فيأتيها ابوللو هذا بهيئة افعى او ما اشبه . ولقد اتخذ اباطرة الرومان لقب الالوهية ونسبوا انفسهم الى سلالتها متأثرين خطى أوغسطس . وانك لتجد هؤلاء «الملوك الآلهة» يصرون اصرارا (منطقيا) شديدا على ان اسلافهم هم ايضا وفي الوقت نفسه من «الملوك البشر» ! فالاسكندر المقدوني الذي يدّعي انه ابن لابوللو يصر كذلك على انه ابن لفيليب . واما موقف الاناجيل من ذلك ، فمتّى ولوقا (١) الرسولان يثبتان كلّ في انجيله شجرتي نسب متناقضتين للاستدلال على انتساب يسوع من جهة يوسف ابيه الى بيت داود الملكي . ومع هذا يقولان

---

١ ــ كتب لوقا انجيله في رومية للمسيحيين اليونانيين او الرومانيين ، ذكر احدهم في مقدمته وهو ثاوفيلس الذي اهدى اليه الكتاب كما جرت عادة كتاب الاقدمين وأخذ الشيء الكثير من اخبار يسوع عن انجيل مرقس . اما الاخبار والاقوال التي انفرد بها فقد اخذها من افواه من سمعوا يسوع . وكان لوقا يونانيا .

ان اباه لم يكن يوسف بل الروح القدس وهذا اقحام متاخر اقتبس من التقليد التاريخي الامبراطوري (اليوناني ثم الروماني). الا ان التجربة برهنت على ان الايمان بنزول المسيح من صلب داود ، وبأنه حبل به من الروح القدس في آن واحد ، هو ايمان ممكن . ومثل هذا الايمان المزدوج تتقبله الاذهان البشرية من دون قلق او شكوك بسبب ما يتضمن من تناقض . وفي امكاننا ايراد عدة أمثلة لذلك . منها قضية معروفة للجيل الذي انا منه ، هي قضية «الدعي تجبورن» الذي لقيت محاولته في انتحال البارونية (١) مساندة من احدى نقابات العمال ، على اساس كون افراد اسرة «تجبورن» الحقيقيين يرمون الى تجريد عامل من حقوقه بمقاومتهم محاولة الانتحال تلك ! ومن المحتمل جدا ان القديسين متى ولوقا كانا غافلين عن التناقض الذي وقعا فيه . والواقع ان الصعوبة والاشكال لا يرتفعان بنظرية «الاقحام» . اذ لا شك ان القائمين بهذه العملية هم انفسهم لا يدرون بها . وثم سبب آخر اقوى من هذا السبب للشك بحصول «الاقحام» ، وهو ان بولس الرسول لم يعرف شيئا عن الولادة الالهية ، بل كان جل ما يعلم ان يسوع جاء الى هذا العالم باعتباره ابنا ليوسف النجار . الا انه قام من بين الاموات بعد ثلاثة ايام من وفاته باعتباره ابنا لله . وقليل من الناس هنا ايضا من يلاحظ هذا التناقض ، والعقل المثقف يقبل وجهات النظر الثلاث في آن واحد دون حيرة او ارتباك . ذلك لان في مقدورنا ان نعتنق نصف دزينة من الروايات المتناقضة لحادثة ، اذا كنا نشعر نحوها بأحد شعورين : اما انها لا تهم كثيرا واما ان هناك حلا وسطا يمكن التوصل اليه للتوفيق بين هذه الروايات المتناقضة . الا ان

---

١ ــ لقب ارستقراطي

التناقض ليس بالقضية التي تشغل بالنا الآن . وكل ما ينبغي أن يلاحظ الآن هو انه لم يكن ثم مندوحة من ربط الاسطورة المتعلقة بالولادة الالهية عاجلا ام آجلا بالشخصيات البارزة جدا في عهد الامبراطورية الرومانية . وان اللاهوتيين المعاصرين لا يكذبونها ، بالعكس فانهم يؤكدون الحبل العجائبي بكل ما وسعهم من منطق لا بالنسبة الى يسوع وحده بل بالنسبة لأمه ايضا .

***

بافتقارنا هنا الى مواد بحث ووسائل تقصّ اكثر من عادة التخيل البشري لا مانع ان يقرأ كل امرىء الاناجيل الاربعة على ان لا ترافق قراءاته الدهشة والارتياب الساخر اللذان يتلفان مزاج كثير من ملحدي عصرنا . وأن لا يلازمها ذلك الايمان السخيف الذي يحمل الاتقياء والورعين احيانا على ارغامنا كارهين على ركلهم ودفعهم عنا جانبا في وقت الضرورة وحين تحتم علينا الظروف ذلك بوصفهم من طبقة المجذوبين اللاواقعيين ، حين يطلبون منا مواجهة العنف والظلم بالخنوع الابكم الصامت ، اعتقادا منهم بأن سلوك يسوع امام بيلاطس كان يقصد به ضرب مثل للسلوك الاعتيادي الذي يجب ان يتخذه البشر . الا دعنا نسلم بان الاناجيل مجردة عن الدلائل السديدة المقنعة ، ان هي الا هراء لا يصدقه المثقف العصري . وأن قصص الرسل (١) لا

---

١ ـ قصص الرسل او اعمال الرسل وهو احد أسفار العهد الجديد . الفه لوقا الانجيلي بعد السنة ٦٤ وقبل السنة ٧٠ م كما تقدم في موضوع انجيله. ويتضمن هذا السفر الكبير قصة انتشار الدين المسيحي في المعمورة وحياة الرسل وتعاملهم مع الناس ورحلاتهم وموقف السلطات منهم الخ ... يتضمن ايضا الرسائل التي كان يبعث بها بولس الرسول الى المؤمنين والتلاميذ وفي اغلبها قواعد ومبادىء اصبحت جزءا من العقائد المسيحية الحالية .

يمكن ان تقرا البتة ، الا ان قراءتها بوجود ادلة قد تكون ممكنة الى حد ما . وهنا يبدو لك يسوع شخصا جامدا غير مفهوم . كذلك تغدو الاسباب التي دفعته الى التقدم «كالخروف المقاد للذبح» بدلا من انقاذ نفسه كما فعل محمد بن عبد الله اسبابا واضحة تماما . وتبدو لك الحكاية موثوقة كأية حكاية تاريخية اخرى معاصرة لها .

الفصل الثاني

متى

البشارة ـ المذبحة ـ الفرار

الا فلنبدأ بانجيل متّى ، وليكن معلوما لدينا ان صاحب هذا الانجيل لا يدّعي بأن ما كتبه هو تقرير لشاهد عيان ، بل هو تأريخ كالتواريخ الاخرى بني على شواهد ومعلومات مما يكون عادة في متناول المؤرخ . ان من يدعي من الانجيليين ، بأنه وحده صاحب اولى الشواهد لكونه الشاهد العيان ، لا بد يحرص بنوع خاص على ابراز ذلك ونشره بين الملأ ، وبما ان متى لم يزعم لانجيله هذا الزعم وانما يعترف بأنه كتب كتابة مؤرخ بحت من الالف الى الياء ، موضحا بأنه يقص قصة يسوع مثلما قص هولينشيد قصة ماكبث خلا ان متّه لسبب سيذكر من بعد ـ جمع مادته واكمل سِفره في حياة اشخاص ثبت ثبوتا قاطعا انهم عاصروا يسوع . وعلينا ان نأخذ في نظر الاعتبار ايضا انه كتب سِفره باللغة اليونانية في حين ان الروايات الاولى عن يسوع ، والاقوال المعزوة

اليه فعلا ، كانت بلا شك باللغة الآرامية لغة فلسطين الدارجة في زمانه . هذه الميزات مهمة كما ستجد ذلك ، عندما تقرأ هولِنشيد او فرواسّار ثم تقرأ بعدهما بنفنوتوشللِيني (١) . انك لا تنحي على هولنشيد وفرواسار باللائمة لايمانهما بالاشياء التي قرآها او سمعاها وترديدهما لها وان كنت لا تستطيع دائما تصديق هذه الامور انت نفسك . لكن عندما يحدثك شلليني بأنه راى هذا او فعل ذاك ، فستجد من المتعذر عليك ان لا تنسى بأن متّى هو هولنشيد وليس بِنفونوتو والصفحات الاولى بالذات من قصته ، ستضع سلوكك تجاهها على المحك .

يخبرنا متّى بأن أم يسوع خُطبت لرجل ينحدر من نسل الملوك اسمه يوسف وانه كان في سعة من عيش تسمح له بالسكنى في منزل ببيت لحم ، كيلا يُستغرب من «الملوك» تقديم هدايا له من ذهب دون ان يثير عملهم هذا اي تساؤل (٢) يحدثنا ان ملاكا اعلن ليوسف بأن يسوع هو في الواقع ابن الروح القدس. فيتحتم عليه والحالة هذه ان يمسك عن اتهام الأم بالزنا بسبب حملها جنينا ليس هو ابا له . الا ان هذه الرواية تختفي ولا يبين لها

---

١ – يشير شو هنا الى الفرق بين «مؤرخين» امتزجت كتاباتهم بالاساطير مثل هولنشيد (ت ١٥٨٠) وفرواسار (ت ١٤١٠) ، وبين شاهد عيان يخط مذكراته كشلليني ت ١٥٧١ (ت ١٥٧١) .

٢ – يشير شو الى ما جاء في متى ف:٢ كان المجوس الذين اعتبرهم شو ملوكا اناسا يرقبون النجوم وقد قدموا «الى اورشليم من المشرق، وقالوا اين الملك الذي ولد لليهود ؟ فقد رأينا نجمه طالعا فجئنا لنسجد له» ... «واذا النجم الذي رأوه طالعا يتقدمهم حتى بلغ المكان الذي فيه الطفل فوقف فوقه . فلما ابصروا النجم فرحوا فرحا عظيما جدا ودخلوا البيت فرأوا فيه الطفل وامه مريم ، فجثوا له ساجدين ثم فتحوا حقائبهم وأهدوا اليه ذهبا وبخورا ومرا» .

اثر في الوقائع التالية ، ولا تجد ثم ذكرا او اشارة لوصول اية معلومات له بخصوصها . والواقع ان السرد يستمر بصورة عامة وكأن هذه «البشارة» ليست جزء منها !

ولاعتقاد هيرودس التترارك ان طفلا مولودا سيقدّر له ان يحوز سلطانا يمكنه من القضاء عليه ، يصدر امرا بقتل كـــل الاطفال الذكور ، الا ان يسوع ينجو من المذبحة بفرار ابويه به الى مصر وعودتهما بعد زوال الخطر الى مسقط راسهما الناصرة . وهنا علينا الاستنظار قليلا لنقول : ليس بين الانجيليين من يقبل بهذه القضية ، كما انه لا يقبل احد منهم بيوحنا الذي يرفض كل ما جاء في انجيل متّى برمته ويقاسمه الشذوذ في تناول التاريخ وكتابة السيرة بوصفهما مجرد وقائع حققت نبوءات يهودية غابرة. هذا الخيال أدى به بلا ريب الى البحث عن اسطورة ما لتحقيق نبوءة هوشع : «من ارض مصر دعوت ابني» ، ونبوءة ارميا (١) عن راحيل «التي تبكي اولادها» وهو في الواقع يؤيد هذا وكل ما يدور حول معقولية قتل الاطفال الابرياء ، والفرار الى مصر وهو مما لا يجتذب اهتمامنا اليوم . وبامكاننا نسيان الموضوع والالتفات الى الجزء المهم من الحكاية التي تقفز رأسا الى عهد رجولة يسوع.

---

١ ـ ايرميا (ارميا) ابن حلقيا اللاوي ، بث نبؤاته في عهد يوشيـــا الملـك ولستر بعد خراب اورشليم على يد نبوخذنصر البابلي في العام ٥٨٦ ق.م. دوّن تلميذه باروخ نبوءاته . ويغلب الباحثون ان باروخ كتب جزءا من سفر ايرميا المعروف وأن كتابا لاحقين زادوا عليه . ويعتبر هذا النبي من الاربعة الكبــار عند اليهود .

وهوشع Hosea هو احد انبياء اليهود الاربعة الكبار الاوائل عاش في حدود القرن الثامن ق.م. كان يحث مواطنيه على ترك عبادة الاصنام الى يهوه وعن العقاب الذي ينتظرهم .

يوحنا المعمدان

في هذه الساعة ، راح نبي (خلاصيّ) يدعى يوحنا يثير الناس اثارة شديدة باعلانه أن فريضة الختان لا تكفي لتكريس المرء نفسه للرب وانه يعتاض عنها بفريضة (العماد) . ونحن الذين وجدنا ان لا مناص لنا من المعمودية ، ورأينا في الختان عملية غريبة عنا تافهة لا بل مهزلة من المهازل . كان هذا الاثر العظيم للهرطقة المعمدانية على اليهود ، شيئا غير مفهوم بالنسبة لنا ، اذ بدا لنا قيام يوحنا بتعميد الناس امرا طبيعيا جدا لا غبار عليه ولا يختلف عن اية عملية يقوم بها راعي كنيستنا في القرية ، لكن نبذ فكرة الختان والاستعاضة عنها بالمعمودية كان في نظر اليهود بمستوى نبذ فكرة تحول مادة الخبز ومادة الخمر الى لحم المسيح ودمه اثناء مراسيم «القداس» عند كاثوليك القرن السادس عشر ، كما قضى سوء حظ بولس الرسول أن يكتشف ذلك فيما بعد .

يسوع ينضم الى المعمدانيين

دخل يسوع وهو ابن الثلاثين على حد قول لوقا ، حياة عصره الدينية مؤمنا بعقيدة يوحنا المعمدان . وابتدأ بأن طلب من هذا النبي المعمودية كما كان يتقدم قبل اربعين عاما كل جنتلمان شاب ميسور الحال بطلب «الانضمام الى نِحلَة الاشتراكيين» وبقدر ما يتعلق الامر بالعقيدة اليهودية السائدة وقتذاك ، كان يسوع بعمله هذا ، كمن أحرق سفنه وقطع عن نفسه روتين الثروة والمال والتمسك بالدين القويم (١) . ثم انه بدأ يعظ بانجيل بشارة يوحنا

---

١ ــ اعني انه اتخذ طريقا لا عودة منها بالافتئات على اعظم مقدسات دينه وشريعته ، شريعة موسى ، فحكم على نفسه بالزيغ عن العقيدة اليهودية رغم انه كان يبدو مقيما عليها .

المعمدان الذي كان يدعو الناس الى التوبة والاستغفار لآثامهم وخطيئاتهم ، لان ملكوت الله قد دنا وهو الآن بمتناول اليد ! ففضلا عن دعوته الى زندقته ... العماد ! تلك الزندقة التي تكمن قيمتها الحقيقية في اجتذاب الوثنيين اي (غير المتخنثين) الى حظيرة الخلاص . ويضيف لوقا قائلا انه وعظ ايضا بشيوعية الاحسان والصدقة ، حين نبّه العشارين بأن لا يشتطوا في اعتصارها من المكلفين بها . ونصح الجنود بأن يقنعوا بتمريناتهم العسكرية ولا يستخدموا العنف ولا ينهموا الآخرين كذبا وزورا . وليس في الروايات ما يشير الى ان يوحنا المعمدان ذهب الى أبعد من هذا .

يوحنا الهمجي ويسوع الحضري

لم يسع يسوع الا ان يمضي الى ابعد من هذا على ما يذكر متّى . ومع انه انقلب واعظا جوّالا مثل يوحنا الا انه نأى كثيرا عن أسلوب عيش زميله هذا . فيوحنا خرج الى البرية القفراء ، ولم يغش الكنيسست . وكان جرن عماده نهر الاردن . وأخذ بحياة الزهد والتنسك فستر جسده بجلود الحيوانات ، واقتات على الجراد وعسل البرية يعيش عيشة وحشية صارمة . وراح ينشد الشهادة فنالها على يدي هيرودس . على ان يسوع لم يجد فضيلة ما لا في التقشف ولا في حب الاستشهاد . فهو على الضد من يوحنا حضري من اساسه مهذب الى درجة عالية ؛ ويقول لوقا ان يسوع نفسه اشار الى الفرق بين هاتين الحالتين موبخا اليهود لقولهم ان يوحنا فيه مس من الجن وأن الشيطان قد ركبه لانه نباتي لا يقرب اللحم ولا يشرب الخمر . كما انبهم عندما اتجهوا اليه هو ايضا وراحوا يثلبونه وينتقصونه ويعيبون عليه شربه

الخمر والشراهة ومجالسة (العشارين) والعاهرات ؛ وأنذر يسوع تلاميذ له متزمتين ، بانهم سيصادفون متاعب كثيرة من الناس ، دون ان يسببوا لغيرهم اية متاعب واوصاهم ان يجتنبوا الاستشهاد وان يمتعوا انفسهم كلما وجدوا الى ذلك سبيلا . وقال لهم «اذا اضطهدوكم في هذه المدينة انقلبوا الى الاخرى» . وكان يعظ الناس في الكنيس مثلما يعظهم في الارض البراح والعرَصات سواء بسواء ، ايهما صادف ؛ ويردد القول دوما «اني اريد رحمة لا ذبيحة» موضحا انه يريد بذلك تبرئة نفسه من الوهم المتأصل في النفوس، وهو نشدان مرضاة الله في مكابدة صنوف العذاب. «لا تكونوا مثل الفريسيين ، لا تسلكوا سلوكهم فانهم يقولون ولا يفعلون» (١) وهو كذلك طيب المجلس حسن المعشر، يشارك موظفي الرومان موائدهم ، ويلام لانه لا يغسل يديه قبل الطعام ، ويخيب آمال اتباع يوحنا الذين يصومون ويتوقعون أن يجدوا المسيحيين اكثر تقشفا منهم ، عندما يجدونه هو وتلاميذه الاثني عشر غير صيام . فيقول يسوع لهم ، ان عليهم ان يفرحوا به بدل ان يكتئبوا . وهو مرح هازل اذ تراه يقول لهم انهم لا يلبثون ان يجدوا صياما كثيرا ينتظرهم جميعا شاؤا ذلك ام ابوا . وهو لا يخشى المرض ، فتراه يواكل الابرص ، وتتقدم امراة منه (تريد وقايته من العدوى كما يبدو) فتسكب عطرا غالي الثمن على راسه ، فيتعرض لانتقاد شديد ، اذ كان الاحرى به ان يوزع ثمن العطر على الفقراء والمحتاجين . فيسخر من هذه الفكرة المقبضة للنفس ويردد دائما

---

٢ ـ متى : ف ١٠ «واذا لم تقبلوا ولم يسمع كلامكم ، فاخرجوا من ذاك البيت او تلك المدينة نافضين الغبار عن أقدامكم» ... «واذا طاردوكم من مدينة فاهربوا الى غيرها . واذا طاردوكم في هذه ايضا فاهربوا الى بلد آخر ..» . وفي ف ٢٣ : من متى هجاء مقذع بحق الفريسيين والكتبة . فليراجع .

قوله (عندما ينتقد) ان الفقراء هم دائما موجودون جل‌ان تمد لهم يد المساعدة ، ولكنه لن يكون معهم دائما . ويوصي بقوله «عليكم ان لا تضيعوا فرصة السعادة عندما يوجد هذا القدر العظيم من البؤس في العالم». وهو يكسر عطلة السبت ، ويضيق ذرعـــا باتباع الاعراف والتقاليد عندما يكونان مصدرا للضيق والازعاج او عندما يقفان عقبة في سبيله . وهو يثير استنكار اليهود ويطعن مشاعرهم في الخروج عنها ويقدم على اتهام الناس الذين يعيشون في هذا الرياء . وهو كالطبيب الذكر صموئيل بطلر ينظر الـــى المرض بمثابة نوع من الاثم فتراه يقول عندما يشفـــي الاعرج : «مغفورة لك خطاياك» ، بدل قوله «انهض وامش !» زاعما من ثم ان مغفرة الخطايا وشفاء الامراض كلاهما شيء واحد . وعندما انتقده الكتبة (١) لادعائه السلطان على هذا ، لم يكن في ادعائه اي تواضع فقد زعم انه اعظم من سليمان ومن يونان (٢) . وعندما

---

١ ــ يطلق على اولئك الذين يكتبون او يسجلون اسفار الشريعة واخيرا اطلق على مفسريها وشارحيها . وقد ارتفعت اهمية الكتبة في آخر قرنين قبل الميلاد فاصبحوا معلمي الشريعة ومفسريها واصبحوا خطباء في المجامع وقضاة . وكان ينتخب منهم أعضاء المجلس الديني الاكبر وهو المجلس التشريعي اليهودي . وتحترمهم عامة الناس وتطبق الاحكام القضائية التي يصدرونها . والمعتقد ان المعارضة الشديدة التي لقيها المسيحيون في أوائل عهود المسيحية عند اليهود كان سببها القرارات التي اصدرها هؤلاء بحقهم . كان يسوع يأخذ عليهم بصورة خاصة صرامتهم وتشددهم وتمسكهم باللفظ دون المعنى .

٣ ــ سليمان الملك والنبي اليهودي (ت ٩٣٣ ق.م.) الذي يعزى اليه سفر «الامثال» و«نشيد الانشاد والجامعة» ، وينفي الباحثون المتأخرون انه كتبها او كتب اكثرها . ويونان النبي هو صاحب قصة الحوت .

انتقد كما انتقد بنيان (١) لاتخاذه الرواية مثابة في تعليمه الامثال والحِكَم ، برر عمله هذا بالحجة القائلة «ان الفن هو السبيل الوحيدة التي يمكن ان يتعلم بها الناس» . فالمسيح بمختصر القول هو ممن يجب علينا تسميته بالفنان وبالبوهيمي في اسلوب حياته .

لم يكن يسوع داعية الى دين

نقطة ذات اهمية كبيرة عملية في يومنا هذا ، وهي ان المسيح كان ينفي بصراحة الفكرة القائلة ان اشكالا من الديانات ، ما ان ترسخ جذورها ، حتى يغدو من السهل قلعها ورفعها عن تربتها واعادة غرسها مع ازهار ايمان آخر غريب عنها «اذا حاولتم قلع الزوان فستقلعون معه القمح ايضا» على ان مشاريع بعثات التبشير والهداية عندنا ، تعمل ضد هذه النصيحة تماما . والنتائج تظهر صواب نظريته القائلة بأنك اذا هديت شخصا ربي على دين آخر فانك تفسد اخلاقه حتما . وقد عمل يسوع نفسه وفق هذه القاعدة ، فلم يطلب من تلاميذه التحول عن اليهودية الى المسيحية . والى يومنا هذا ، يعتبر المسيحي يهوديا دخل حظيرة (الديانة) بالمعمودية بدلا من الختان ، وقبِل بيسوع مسيحا ، واعتبر تعاليمه أوثق واقرب من تعاليم موسى الى الاتباع . على ان الكهنة اليهود الذين عمدوا الى انقاذ الديانة اليهودية من طغيان

---

١ — John Bunyon (١٦٢٢ — ١٦٨٨) كاتب انكليزي صوفي النزعة اشتهر كتابه The Pilgrim's Progress (اصدره: ١٦٧٨) وهو كتاب ديني رمزي يصف رحلة الانسان الخاطىء الى بر الغفران والطهارة من الذنوب.

المسيحية فعلا بأسفار جديدة وفرائض جديدة ، واضافوا الى قائمة اسماء الملعونين اسم ايشوع (١) النغل الساحر الذي أدت به اعماله الاحتيالية الهزلية الى نهاية سيئة مثل بنش (٢) او تيل يولنشبيغل (٣) فكان استنباطا وتخريجا كلفهم ثمنا غاليا عندما تفوقت عليهم المسيحية سياسيا . واليهودي كما يعرفه يسوع اليهودي لا تخطر بباله مثل هذه الامور وبامكانه ان يصير تابعا له دون ان تخل تبعيته هذه بولائه ليهوديته .

تعاليم يسوع

هذا ما يعن لنا ذكره حول طباعه وحياته الخاصة . على ان حياة الواعظ الجماهيري فيه ، باعدت الشقة كثيرا بينه وبين يوحنا المعمدان . فهو في الواقع لم يول اهتماما خاصا بالعمودية وبالنذور وواصل وعظه وحثه على مكارم الاخلاق دونما هوادة . فدافع عن الشيوعية ، وحرض على توسيع دائرة الاسرة الخاصة وانفتاحها وتفسيح صلاتها الضيقة الملومة بالتحول الى دائرة الاسرة البشرية العظمى التي تخضع لابوة الله . واوصى بنبذ الاحقاد ، وطرح العقاب جانبا وحض على مقابلة الشر بالخير ، بدلا

---

١ ـ ويقصد به (المسيح ابن مريم) طبعا فهو يشوع وايشو بالعبرانية والارامية على التوالي .

٢ ـ Punch : بطل المسرحية الشائعة المعروفة باسم (Punch and Judy) .

٣ ـ Til Eulenspiegel شخصية هزلية في سلسلة من الحكايات الالمانية القديمة طبعت في العام ١٥١٩ .

من مجازاته بالشر العدواني. ودعا الى المفهوم العضوي الاجتماعي، وهو انك لا تُعدّ في مجتمعك فردا مستقلا وانما عضوا فاعلا ، كذلك جارك ، وانتما اعضاء احدكما للآخر كأنكما اصبعان في اليد ، والنتيجة البديهية من هذا ، هي انك ان لم تحب جارك كما تحب نفسك وان لم يحبك هو ايضا مثل حبك له فسيلحق بكلاكما الاذى . لقد شرح يسوع كل هذا ببيان ساحر ممتاز ومتع سامعيه بالامثال الطريفة المقنعة . ولم يكن عنده (كنيست) أو (جماعة من المؤمنين خاصة) وانما كان يتنقل من موضع الى آخر مع اثني عشر استدعاهم وانتزعهم من اعمالهم اثناء مروره بهم — فتركوا اشغالهم وتبعوه .

المعجزات

تميز بقوى غير اعتيادية ، استطاع بها عمل المعجزات . وكان يخجل من وجود هذه القوى فيه . ولكن بما انه في منتهى اللطف ورهافة الحس فهو لا يستطيع ان يرفض تجربتها في شفاء المرضى المبتلين عندما يرفعون اليه أكف الضراعة فيشفيهم . ولما يرى الجموع الكثيفة جائعة ولما يخيم الرعب على تلاميذه من جراء هبوب العاصفة في البحيرات لا يسعه الا معالجة الامر بقواه الخارقة وهو لا يطلب مقابلا وانما يرجو الناس ان لا يذكروا شيئا عن قواه الخارقة هذه او ينشروا خبرها . وثم سببان واضحان لكرهه اشتهار امره بصنع المعجزات : احدهما نفرة طبيعية تجدها في كل اولئك الذين يملكون مثلما ملك يسوع مع امتلاكهم في الوقت نفسه عملا آخر في الحياة اهم من ممارسة تلك المعجزات ، لئلا ينظر اليهم كما ينظر الى المشعوذين والدجالين بالدرجة الاولى . هذا فضلا عن تضايقه من طلبهم اليه تجربة

هذه القوى ارضاء لحب استطلاع فيهم ليس غير . واما السبب الآخر لهذا الكره فهو ان وجهة نظره في تأثير المعجزات على رسالته هي بالضبط وجهة نظر روسو من بعده . كان يدرك فعلا انه سيفقد ثقتهم ويحوّل اهتمامهم عن عقيدة كاملة الابعاد ، بخلقه مسألة جديدة غير ذات علاقة فيما بين تلاميذه وبين خصومه .

ربما لم يتدارس قرائي كتاب روسو الموسوم (رسائل كتبت من الجبل) ، وهو الكتاب الذي يمكن اعتباره مرجعا في مسائل المعجزات بوصفها «اوراق اعتماد» لصحة الرسالة الالهية ! يوضح روسو كما تكهن يسوع – ان المعجزات هي العقبة الكأداء الرئيسية التي تحول دون اقتبال الدين المسيحي كدين لان استحالة التصديق بها (لو لم يتعذر تصديقها ما عادت معجزات !) تجعل الناس يشكون في أصل الحكاية وفي صحتها . تحدث المعجزات فعلا ولا يكون في حدوثها ريب ، الا ان الشك يأتي الى موضوع العقيدة المقترنة بها . وفي هذا الصدد يقول روسو : « تخلص من المعجزات ، وسيقع العالم أجمع تحت قدمي يسوع» وهو يشير الى تلك المعجزات التي تتقدم بوصفها دليلا على الالوهية فتفشل في اقناع العقول وتجعل من تلك العقيدة مهزلة . وهو يقول بحق: «لا غرابة في ان تجعل الاعرج يمشي بصورة اعتيادية فهناك آلاف من العرج تم لهم الشفاء وراحوا يمشون على أقدامهم دون اية معجزة . لكن جئني برجل ذي ساق واحدة ، واجعل الساق الاخرى تنمو له أمام عينيّ في الحال ، وسأصاب بالدهشة حقا. اما مجرد شفاء اسقام وأوجاع، كثيرا ما تحققلها الشفاء من قبل، فهو مما لا قيمة له مطلقا اذا اعتمد دليلا على شيء آخر غير الرغبة في المعونة او اتخذ برهانا على القدرة الشفائية» .

وعند متّى ان يسوع يتفق تماما مع روسو ، وانه يشعر بالحظ شعورا قويا بحيث انه يشعر بمنتهى القرف والانزعاج عندما يأتيه أناس لا هم مرضى ولا هم في محنة يطلبون منه

ممارسة قواه الخارقة كدليل على رسالته . فيرفض وهو ساخط سخطا قد يعتبرونه غير معقول صدوره منه وهم الذين يجهلون وجهة نظر روسو . انها لتجربة مرة لهم ان ينعتهم صانع المعجزات «بالجيل الشرير الفاسق» لمجرد طلبهم منه ان يعرض لهم نموذجا لقواه الخارقة. والشيء بالشيء يذكر ان النبي محمدا ثارت ثائرته وخرج عن طوره ايضا عندما طلب الناس منه صنع معجزات فأنكر صراحة وجود اية قوى خارقة فيه ، بينما يتضح من قصة متى ان يسوع كان لسوء حظه كما ظن هذا الانجيلي يتمتع ببعض القوى الشفائية . كذلك واضح بأن ممارسة قوى كهذه ستثير كثيرا من الاقاويل والحكايات عن مآثر السحر التي ستعرّض بطلها الى الاتهام بوصفه دجالا يمارس شعوذاته بين اناس كان رأيهم الطيب ذا اثر عظيم في النشاط الذي بدأ به رسالته . الا اشد آثار القلق والحيرة التي تخلفها المعجزات هي انها لا تلائم الغرض الجوهري الذي وجدت لخدمته . فتعاليم يسوع (وهي الغرض الجوهري) لا علاقة لها بالمعجزات . واذا كانت رسالته لمجرد اظهاره طريقة جديدة لاعادة البصر الى العين ، فان معجزة شفاء الاكمة تكون متفقة مع الغرض تماما . اما قوله «احبوا اعداءكم ، ولاقناعكم بذلك فسأباشر الآن بشفاء هذا السيد من مرض نزول الماء على عينه» فسيكون اقتراحا جنونيا بالنسبة الى رجل ذكي كيسوع ولو امكن اليوم البرهان على انه لم تحصل قط اية اعجوبة من اعاجيب يسوع فان هذا البرهان لن يبطل قولا واحدا من اقواله التهذيبية او تعاليمه ، بالعكس من هذا لو امكن البرهنة على ان المعجزات المدوّنة في الاناجيل ليست وحدها هي التي وقعت فعلا وانما هناك الف اخرى منها تفوقها اعجازا الف مرة فلن يضيف ذلك من الثقل والاهمية الى عقيدته ومع هذا ، فان الحيوية الذهنية التي كانت ترى في الملحدين واللاهوتيين قد تدهورت على مدى أجيال من النقاش المستمر حول المعجزات

بالافتراض ان المسيحية ستتعرض الى خطر ماحق بسبب الجدال حول حكايات متّى أهي زائفة ؟ ام حقيقية ؟ ومما يستفاد من متّى نفسه ان يسوع كان بلا ريب يعرف ذلك معرفة تامة فاللجاجة والالحاح كانا يلاحقانه في طلب المعجزات أنى توجه وسار ، وكلما اثارت شريعته الحيرة في النفوس .

الا فلنضرب الآن عن المعجزات صفحا . ولنعد بعدها لنجد ان متّى يخبرنا بأن يسوع صرح ان تعاليمه ستكون هدفا لمهاجمة الدين السائد ونظام الحكم القائم ، وأن الجماهير وسواد الشعب هو «ملح الارض» و«نور العالم» وأن تلاميذه في علاقاتهم مع المنظمات السياسية والدينية (الكنيسية) سيكونون كالاغنام بين الذئاب (١) .

متّى ينسب التعصب ليسوع

ان متّى كمعظم كتّاب السيَر ، يجاهد في جعل آراء بطله وأمزجته ونزعاته نسخة منه متطابقة . ومع انه يصف يسوع بالتسامح الى درجة اهماله الحذر ، فانه يضع بينه وبين الوثنيين حاجزا ، ويقدمه لقرائه يهوديا متعصبا يرى رسالته مقصورة على «خروف بيت اسرائيل الضال» . وعندما طلبت المرأة الكنعانية من يسوع ان يشفي ابنتها ، رفض ان يكلمها في مبدأ الامر ، ثم زجرها زجرا فيه فظاظة وغلاظة اذ قال لها «لا يحسن ان يؤخذ خبز البنين فيلقى الى جراء الكلاب» فقالت له «رحماك يا سيد؛ حتى جراء الكلاب تأكل من الفتات الذي يتساقط عن موائد

---

١ ــ متى : ف ١٠ .

اصحابها» فأذابت بقولها هذا قلب اليهودي فيه وجعلت المسيح مسيحيا ، وأجابها «ما اعظم ايمانك ايتها المرأة فليكن لك مـــا تريدين» . وهذه القصة على كل ، هي واحدة من اشد القصص وقعا وتأثيرا على النفس في انجيل متّى ، وربما كان ذلك متأتيا من ان المرأة وبخت النبي بمسها أروع سجية من سجاياه . انها بالتأكيد بعيدة عن طبعه ، غريب صدورها منه. لكن ، لما كانت آثام الرجال الصالحين هي دائما بعيدة عن طباعهم فليس سليما ان نرفض القصة بوصفها منحولة موضوعة دعما لاصرار متّـــى وتأكيده بأن يسوع لم يكن له اية علاقة بالملحدين على اي حال ، فتلك هي القصة قائمة ولم تكن المناسبة الوحيدة التي يهتبلهـــا متى ليظهر يسوع مع سحر وعظه وجمال تعاليمه، شخصا بمنتهى الفظاظة في علاقاته الشخصية .

التحول العظيم

الى هذا الحد كان تاريخ حياة يسوع تاريخ انسان سليم العقل جذاب الخصال . دعك من مواهبه وملكاتـــه كخطيب شعبي ، وشاف للاسقام ، ونبي . على ان تغييرا هاما سرعان ما يحصل له. ففي يوم ما ، بعد ان خيب تلاميذه ظنه فيهم لسوء فهمهم رسالته ، اذ دبت فيهم الحيرة وأخذوا يتساءلون : اهو احـــد الانبياء القدماء بُعث ثانية ؟ واذا كان الامر كذلك فأي نوع مـــن الانبياء هو ؟ وعندها نهض بطرس بغتة ليحل المشكلة اذ هتـــف يقول «انك انت المسيح ابن الله الحي !» فسرّ يسوع بهذا سرورا لا حد له واهتاجت عواطفه فصرخ قائلا ان الله قد أوصى لبطرس بما قاله ايحاء مباشرا . ثم جعل اسم بطرس تورية بأن اعلنـــه

(صخرة) (١) اي مؤسسا لكنيسته وقابلا بمصير كمصير الآلهة حينما اعلن انه هو نفسه سيقتل عندما يدخل اورشليم . اذ لو كان هو المسيح حقا فان الجزء الضروري من مصيره الاسطوري يقضي ان يموت ميتة عنيفة غير طبيعية . ولما بدا على بطرس عدم الفهم لكلامه بدأ بطرس يعاتبه منفردا لما بدا منه من كآبة مبعثها الخوف والجبن ، فيلتفت اليه وينتهره بحدة قائلا «أبعد عني ايها الشيطان ..» (٢) .

ويغدو يسوع منشغل البال بايمانه بألوهيته ويتكلم عن ذلك لتلاميذه بلا انقطاع مع انه كان يمنعهم عن التنويه بها للآخرين . فيبداون خصاما فيما بينهم حول المراكز التي سيشغلونها في السماء عندما يأتي ملكوته ، فيزجرهم زجرا شديدا ويكرر وصيته بأن الرفعة والمنصب يعني الخدمة لا التسلط الا انه هو بالذات (وكان بطبعه متعاليا نوعا ما) يصبح دكتاتوري النزعة متعجرفا ، بل يبلغ حد الشراسة احيانا ولا يجيب منتقديه الا وفي اجابته امثولة جارحة ويبلغ به الامر ان يلعن شجرة تين خيبت أمله عندما قصدها ليجني ثمرها . ويتخذ كل تقاليد الآلهة الفولكلورية ويعلن مثل جون بارلي كورن ! بأنه سيقتل شر قتلة ويدفن ، على انه سيقوم من القبر ويعود الى الحياة . ويعزو لنفسه تلك التقاليد القبلية المجهولة الاصل والمنشأ : مباركة الخبز والخمر ومناولتهما لتلاميذه مشفوعة بعبارة «خذوا فكلوا هذا هو جسدي وهذا هو دمي» ويسهى عن تعاليمه نفسها فيهدد بالنار الازلية والعقاب الابدي ويعلن فضلا عن قيامته البارلي كورنية ! بأنه سيأتي الى العالم ثانية يحف به المجد ويقيم مملكة على الارض . ويخشى بأن

---

١ ــ ورد تفصيلها في الفصل ١٦ من انجيل متى .

٢ ــ (ف : ١٦ ، متى) .

يؤدي هذا الى ظهور ادعياء مزيفين يزعمون انهم هو ويقـــول بصراحة وداب، انمجيئه مقدر محتوملا يجادل فيه احد (١) ومهما صنع هؤلاء الادعياء من العجائب لاجتذاب الناس . وانه سيخر كالنجم الثاقب من السماء بينما تنفخ الملائكة بالابواق اعلانـــا لمجيئه . ويصرح كذلك بأن ذلك سيحصل في حياة اشخاص هم الآن في قيد الحياة .

اورشليم والقربان السرّي

في هذه الحالة الفكرية الجديدة يدخل يسوع اورشليم اخيرا وسط فضول وتطلع شعبي عظيم فيطرد الصرافين وباعة الاضاحي من الهيكل محدثا ضجة وصخبا . ويرفض ان يمتع نفسه بجمال بناء الهيكل وروعته زاعما انه سيتقوض ولن يبقى فيه حجر على حجر ، ويروح يشنم الكهنة والوجهاء ويسبهم سبا مقذعا . ثم يُعتقل ليلا في احد البساتين اجتنابا لفتنة عامة فلا يبدي مقاومة، لانه مقتنع بأن هذا هو جزء من مصيره بوصفه إلها ــ اي انـــه مكتوب بأنه يقتل ليُبعث حيا . ويحاول احد تلاميذه (٢) اظهار مقاومة فيقطع بسيفه اذن احد الذين خرجوا لاعتقاله فينتهـره يسوع . الا انه لا يحاول شفاء الجرح ويصرح قائلا انه لو رغب في المقاومة فليس اسهل عليه من ان يدعو لنصرتـــه اثني عشر مليون ملاك ! ويؤخذ الى رئيس الكهنة ، فيسلمه هذا بدوره الى الحاكم الروماني الذي يحيره رفضه الصامت . واباؤه الدفاع عن

---

١ ــ ف : ٢٤ ، و ف : ٣١ .

٢ ــ هو سمعان بطرس رأس الرسل .

نفسه بأي شكل من الاسكال ، ولم يقبل دحض منهميه ومن شهد عليه ؛ ذلك لان بيلاطس كان خالي الذهن طبعا مـن ان السجين يعتبر نفسه بأنه يجتاز اجراءات مقررة مرسومة لا بد منها ، من عذاب وموت ودفن باعتبارها اجراءات تمهيدية للبعث (القيامة). وظل امام رئيس الكهنة ايضا يلازم الصمت . لكنه لم يتردد في الاجابة عن سؤال الكاهن الاكبر «هل انت المسيح ابن اللـــه» بالايجاب ويقول في معرض رده هذا انهم جميعا سيرون «ابـن الانسان» جالسا عن يمين الآب ، آتيا فوق سحابة من السماء . وهو يحافظ على مسلكه هذا بشجاعة هائلة تبعث الرعدة فـي البدن ، عندما يجلدونه ويسخرون منه ويعذبونه ثم يصلبونه بين لصين . الا ان معاناته الطويلة لسكرات الموت من فرط العطش والآلام تفل من عزيمته اخيرا ، فيموت وهو يهتف «إلهي لمـاذا تركتني ؟ » .

ليس هذا الرجل وانما برأبا

في هذه الاثناء ينبذه الشعب والكهنة نبذا حازما قاطعـا فينعطف عليه بيلاطس ولعجزه عن فهم جريمته بالضبـط (ان التجذيف الذي ارعب رئيس الكهنة لم يكن له تأثير على هـذا الروماني) يحاول انقاذه بتذكير الشعب بأن العادة جرت ان يكون لهم الحق في ان يطلبوا اطلاق سجين في تلك المناسبة من العام ، ويقترح عليهم ان يطلق لهم يسوع لكنهم يصرون على ان يطلق لهم سجينا آخر يدعى برأبا بدلا منه ، وان يصدر أمره بصلبه . ولا يتقدم متّى بأي تفسير للشعبية التي كان يتمتع بها السجين برأبا وانما يصفه بأنه «سجين عظيم المكانة» ولا اكثر . وفي الاناجيل التالية تتضح هويته بشكل لا يعود مصدرا لحيرة فيذكر انجريمته

هي التآمر على الدولة والثورة ، وانه كان من محبذي استخدام القوة المجردة المادية . وانه رجل بطش . وهكذا بدا اختيار برأبا وكأنه تفضيل شعبي للقوةالمجاهدة الباطشة علىالتبشير بالرحمة، وكراهة العنف .

القيامـة

ثم يحدثنا متّى كيف ان ملاكا نزل بعد ثلاثة ايام وفتح بـاب قبر عائلة يوسف الاريماثي الغني فقام يسوع من جدثه واستوى حيا ، وخرج من اورشليم ، عائدا الى الجليل واستأنف وعظه مع تلاميذه مؤكدا لهم بأنه سيكون معهم الى انقضاء الدهر . وفـي هذه النقطة تنقطع القصة فجأة .. على انها ستبقـى ابدا دون نهايـة !

تاريخ حكاية متى

يمكن التوصل الى تأريخ كتابة الانجيل من غير معونة الباحثين من الوعد الذي قطعه يسوع بعودته ثانية ممجدا اثناء حياة بعض سامعيه . من المؤكد انه كُتب اثناء حياة بعض معاصري يسـوع أعني حين كان ممكنا ان يتحقق وعده بالعودة الى العالم ثانية . مات آخر شخص كان حيا وقت قول يسوع «لن يزول هذا الجيل الراهن حتى يرى ابن الانسان يأتي في ملكوته» وبذلك قضى على آخر احتمال بالعودة الثانية التي وعد بها الناس وايد رأي بيلاطس واليهود الذين لم يصدقوه . كتب متّى انجيله وهو مؤمن بهذا المجيء الثاني ، ولذلك لم يكمل قصته وترك انجيله ناقصا ليختمه

ء المنتظر . اذن فلا بد وانه كتبه خلال حقبة من العمـــر
، خلالها عملية الصلب . كذلك لا بد وان متّى كان يعتقد بأن
الكتب ستكون في مستقبل الايام احدى متع ملكـــوت
او ات والارض !

ف الطبقي ليسوع متّى

هناك اتجاه خاص في متّى يجب التنويه به . انه بدأ قصته
، يوحي للقارىء ان يسوع ينتمي الى اعلى طبقة في البلاد في
يشير فيما بعد ان يسوع عندما حاول ان يخطب فـــي
ل راسه ، لم يلق نجاحا وازدر عنه الناس قائلين «أليس هو
لنجار ؟» (١) على ان سلوك يسوع كان سلوك ارستقراطـي
، أو هو على أقل تقدير سلوك ابن برجوازي غني ، لا سلوك
س متأخر العقلية ، في هذا المجال . كذلك علينا ان نحذر من
بأن يوسف لم يكن غير نجار بروليتاري عصري يعمل بأجور
عية . بل ينبغي لنا ان نتصوره صانعا حاذقا منحدرا من نسل
. فاذا قدرنا ان يكون يوحنا المعمدان اشبه شيء بكايـــر
ي (٢) ، فان يسوع متّى هو من طبقة رسكن وموريس (٣) .

ـــ يطابق متى مرقس في هذه الرواية تقريبا : (ف ١٣ متى ، ف ٦ مرقس) .
ـ James Keir Hardie (١٨٥٦ ـ ١٩١٥) عامل في منجم للفحم
ي اسكتلندي . ذو نزعة اشتراكية اشتغل في الحقل السياسي وانتخب
في البرلمان الانكليزي .
John Ruskin (١٨١٩ ـ ١٩٠٠) احد الكتاب الاقتصاديين والسياسيين
ـ ووليام موريس william Morris (١٨٣٤ ـ ١٨٩٦) هو من عباقرة

كان هذا الخلق المتعالي شديد الظهور فيه بحيث انه لو لم يكن لدينا من الوثائق عنه غير انجيل متّى فلن نشعر نحوه بأقل مما نشعر به الآن ولتحتم علينا .ن نكون أقل اشمئزازا بكثير من قولنا الحالي : «دونك رجلا كان صاحيا متزنا حتى خلع عليه بطرس لقب المسيح فأصبح بعدها مبتليا بداء البرسام (١) » ولترتب علينا ان نشعر بأن واهمنه هذههي مما هو شائعجدا بين المجانين، وان جنونا كهذا لا يتنافى مطلقا مع وجود الدهاء والعمق واصالة التفكير التي أظهرها يسوع في القدس بعد ان استحوذ عليه وهمه تماما واحتل جوانب عقله . اننا والحالة هذه ، لنستنكر ونستهول انزال عقوبة الجلد به وصب الاهانات عليه وصلبه ، مثلما كنا نستفظع معاملة رسكن بهذا الشكل عندما ادركه الجنون هو الآخر بدلا من العناية به ويعالج كما يُعنى بالمرضى ويعالجون ، ولبقينا في حيرة من امرنا ، لا ندرك بوضوح ، الاهمية الخاصة التي تنطوي عليه تسميته (بابن الله وابن الانسان) ولوجب علينا ان نلاحظ بأنه اشتراكي النزعة ، وانه لشديد الرعاية لحرمة ما نسميه بالقانون والنظام بوصفهما آلتين لسلب الفقراء وتجريدهم من مقتناهم ، تحت مزاعم شرعية. وبأنه يرى روابط القربىوالجماعة شراكا للروح تتفق والمثل القائل «كلما زدت قربا من الكنيسة زدت بُعدا عنالله» وانه رأى بوضوح تام ان سادة المجتمع يجبأن يكونوا خدام المجتمع لا مضطهديه ولا طفيلييه . وانه مع عدم اشارته لنا بقتال اعدائنا ، فقد اوصانا بأن عاينا ان نحبهم وأنذرنا

الانكليز . جمع الشعر والفن والهندسة والزخرف ، وكان معروفا بنزعته الاشتراكية ، وكلا الرجلين ينتميان الى الطبقة العليا .

١ – monomoniac : وهو جنون الفكرة الواحدة التي تتسلط على التفكير وتتحكم في كل تصرفات الانسان .

بان من «أخذ بالسيف ، فبالسيف يؤخذ» وكل هذا يضع منهامام اعيننا قوة عظيمة ، قوته في النظر من خلال اوهام مبتذلةومقدرته على الوصول الى قيم اخلاقية اعلى من اية قيـــم تنبت في اي مجتمع متمدن . الا انها تضع يســــوع فوق كونفوشيوس او افلاطون دعك من فلاسفة واخلاقيين آخرين احدث من هذيـــن وأقرب منهما عهدا .

الفصل الثالث

مرقس

التلاميذ ، النساء ، الصعود

الا فلنر ، هل بوسعنا استخلاص شيء من مرقس (١) اكثر

---

١ ــ لم يكن هذا الانجيلي من الرسل الاثني عشر بل على حد قول بعضهم من التلاميذ الاثنين والسبعين الذين ارسلهم يسوع، اثنين اثنين . وزعم آخرون انه الشاب الذي تبعه لما اخذه اليهود من بستان الزيتون وحجتهم ان مرقس انفرد برواية ما جرى لذالك الشاب كأنه يريد الاشارة لنفسه «وتبعه شاب ليس عليه غير ازار فأمسكوه فتخلص من الازار وهرب عريانا (ف ١٤) » . كان مرقس مع بولس في رحلته الاولى (٤٤ م) الى قبرص وآسيا الصغرى ورحل ثانية مع نسيبه برنابا ما بين السنة ٥٠ و٥٢ م. وفي ٦٢ م نراه يصحب بطرس ويعاونه . وتجمع

مما استخلصناه ؟ والشيء بالشيء يذكر ان انجيل مرقس يفترض بأنه اسبق تأليفا من انجيل متّى . وهو مقتضب موجز لا نلبث ان نرى انه لا يضيف شيئا الى ما اورده متّى الا باختتامه القصة بحادث صعود المسيح الى السماء ، وبخبر مؤداه ان عدة نساء صحبن يسوع الى اورشليم ، ومنهن مريم المجدلية التي اخرج منها يسوع سبعة شياطين. ومرقس من الجهة الاخرى لا يذكر شيئا عن ميلاده ولا يتصدى لسيرته الا عند اعتماده وهو رجل بالغ ، على يد يوحنا المعمدان . والظاهر منه انه يعتبر يسوع مواطنا ناصريا مثل زميله يوحنا الانجيلي ، وليس من سكان بيت لحم كما يذكر متّى ولوقا . وبيت لحم هي مدينة داود التي يقول متّى ولوقا انها مسقط راس يسوع . ويصف مرقس عقيدة يوحنا بأنها «معمودية التوبة لغفران الخطايا» . اعني انها شكل من اشكال المذهب الخلاصي . ويحدثنا فضلا عن ذلك ان يسوع دخل الكنيس وعلّم فيه لا كما يعلّم الكتبة ، بل كشخص ذي سلطان(١) اعني كما نستدل منه ، انه علّم مبادئه الخاصة بوصفه اخلاقيا ذا مذهب أصيل ، لا خطيبا مرددا اقوال الكتب . وهو يصف معجزة يسوع بوصوله القارب ماشيا فوق صفحة مياه البحر ولا يذكر شيئا عن محاولة بطرس تقليده في سيره على الماء . ويرى مرقس

الروايات انه ترك روما بعد شهادة بطرس وفي ٦٨ م استشهد هو نفسه في الاسكندرية . يقال ان انجيله مأخود عن ذكريات بطرس وبولس ولهذا يعدونه أشبه بمذكرات لهما ، وقيل انه دوّنه ما قبل العام ٦٤ م في روما بناء على طلب مسيحييها . وليس هناك دليل يشير الى ان انجيل مرقس كتب قبل انجيل متى كما يقول شو في الاصل .

١ ـ اي ذو سلطة تشريعية لا يقتصر في تعليمه على التفاسير والشروح كما يفعل الكتبة وانما يستن ويستنبط القواعد من عنده .

الامور بشكل أدق مما يراها متّى ويضع لمسات واضافات من التفاصيل التي تعرض الاحداث امام القارىء بوضوح فيقول مثلا: بينما كان يسوع يسير فوق الامواج «كاد يجاوزهم فلما رأوه كذلك صرخوا لانهم ظنوه خيالا» . ويبدو انه شعر بأن معاملة يسوع للمرأة الكنعانية تتطلب بعض الاعتذار لذلك جعلها «امرأة وثنية ترجع الى اصل سوري فينيقي» وهو مبرر لاستخدام كل فظاظة معها في رأي مرقس ؛ ويقدم لنا والد الصبي الذي كان ابنه مصابا بداء الصرع فشفاه ، ليضع على شفتيه القول الآتي: «آمنت فشدد ايماني الضعيف» بوصفه واحدا من المرتابين في رسالته . ويروي قصة الارملة التي لا يذكرها متّى . ويوضح ان برأبا كان ملقى في السجن مصفدا بالاغلال مع أولئك «الثائريـــن» الرجال الذين اجترموا القتل في ثورة . واما يوسف الرامي الذي قام بدفن يسوع في ضريح الاسرة الخاص والذي يصفه متّى بأنه «تلميذ» فيقول عنه مرقس انه «كان من الذين ينتظرون ملكوت الله» . مما يوحي للمرء انه كان «باحثا مستقلا» . ويستأهل مرقس الشكر لانه لا ينوه بشيء من النبوءات القديمة وهو بذلك يكشف عن عدم ايمانه «بالوقت والاجـــل المضروب» بل يجتنب التورط في قوله ان يسوع كان يجتاز فحصا مسبقا على ضوء النبوءات التي وردت في الكتب تلك النبوءات المنتظمة مثل انتظام الساعة ، بدلا من مجرد حياة اعتيادية مثل حياة سائر البشر . اخيرا يذكر ان يسوع ذكر بعد قيامته بأن «من آمن واعتمـــد يخلص ، ومن لم يؤمن يقضى عليه ويلعن» لكن يصعب علينـــا مفهوم حالة «القضاء واللعنة» اهي حالة خطأ ؟ ان علماء المخطوطات القديمة يقولون بأن هذه العبارة مدسوسة اقحمها كاتب متأخر .

وعلى العموم ، يتركُ مرقس القارىء العصري ، حيث تركه متّى تماما .

الفصل الرابع

لوقا

لوقا الاديب والفنان

عندما نأتي الى لوقا فاننا نأتي الى متحدث ومنشىء متأخر ، الى شخص يملك في مجال فنه ، موهبة كتابية ، تفوق مواهب الآخرين قوة . وانك لتحس قبل ان تنتهي من قراءة عشرين سطرا منه بأنك اجتزت أسلوب كتابة المؤرخ الذي يدوّن الوقائع الهامة فحسب ، وولجت حرَم الفنان الذي يروي حكاية . تراه من البدء ينظم اروع قصيدة في التوراة واعظمها سحرا تلك هي قصة مريم التي يضطرها ازدحام الفندق الى ان تلوذ بالاسطبل لتضع ابنها في المذود . وقصة الرعاة الساكنين في الحقل لحراسة قطعانهم ليلا ، كيف ظهر لهم (ملاك الرب) وأضاء مجده لهم ، وانضمام جموع غفيره من الارواح السماويـة فجأة حيث

يتوجه الرعاة الى الاسطبل ليتخذوا مكان الملوك في حكاية متّى . هذه القصة استولت على خيالنا واسرت حواسنا أسرا تاما بحيث افترض معظمنا انها موجودة في كل الاناجيل وليست قاصرة على انجيل لوقا . انها لقصة فريدة لم يخطر منها شيء في بال الآخرين .

سحر قصة لوقا

يجلو لوقا سحر الرواية العاطفية في كل حكاية من حكاياته . «فالبشارة» في انجيل متّى تأتي يوسف بمثابة انذار له بألا يطلق زوجته بسبب سوء السلوك ليس الا . اما في لوقا فان البشاره تأتي مريم بالذات . وباسهاب وتفصيل كثيرين . مع شعور بفرح عروس (الروح القدس) وبغبطة الأم . ويسوع في حكاية لوقا هو مهذب رقيق الحاشية حتى انك تكاد لا تتميزه . والتلميذ يوحنا المعمدان الصارم الذي لا تلين قناته ولا يعصم فريسيا او احدا من الكتبة ، دون عبارة مهينة ، يغدو انسانا لين العريكة اجتماعيا حتى ليكاد يبدو حضريا . وهكذا يصبح اليهودي المتعصب متسامحا مواليا للكفرة الانجاس . ويطرد عن (مجمع) بلدته طردا عندما يذكّر المصلين بأن الانبياء فضلوا الكفرة على اليهود احيانا . وفي الواقع انهم حقدوا عليه الى الحد الذي ما كانوا يترددون في قذفه من اعلى ما هو اشبه بالصخرة التي يستخدمونها لتنفيذ أحكام الموت . الا انه يشق طريقه من بينهم وينجو ، وتلك هي الاشارة الوحيدة الى اعتماده المقاومة بالسلاح في الاناجيل كلها . ولا تجد كلمة واحدة عن المراة السورية الفينيقية . وفي النهاية تراه يرتفع بهدوء ويقهر آلامه ويرتجل كلمة وهو في طريقه الى ساحة الموت برباطة جأش لا يشوبها اي اضطراب . ولا يصيبه

اليأس وهو مسمر على الصليب ، ويموت بكل جلال ووقار مستودعا الله روحه بعد ان طلب المغفرة لقاتليه متعللا بأنهم « لا يدرون ما يفعلون» وبحسب ما جاء في متّى ان شتم اللصين اللذين صلبا معه كان جزء من فظاعة ميتته . اما عند لوقا فان واحدا منهما فقط شتمه ، وأما الثاني فقد راح يؤنب صاحبه ، ويرجو من يسوع ان «يذكره في ملكوته» ، فيجيبه يسوع قائلا: «اليوم تكون معي في الفردوس» مثبتا بأنه سيقضي ايام وجوده في عالم الاموات هناك . وبمختصر القول استخدمت في هذا الانجيل الوسائل جميعها للتخلص من الفلاظة والقسوة التي حفلت بها رواية متى ، وتم ارخاء العنان للتوتر العاطفي بحكايات استطرادية مؤثرة ، وباظهار يسوع روحا ارفع من آلام البشر واسمى . ان يسوع لوقا هو اليسوع الذي يأسر قلوبنا اسرا !

اثر الروائية الباريسية الرومانسية

ان اجتناب لوقا الرومانسي كل ما يبعث على الحزن والاسى، ورقة احساسه ورهافته تتجلى في روايته قصة المراة صاحبة الطيب . ان متّى ومرقص يفيدان بأن الحادثة وقعت في بيت شمعون الابرص فاعترض يسوع على عملها هذا ، اذ وجد فيه تبديدا للمال . اما في رواية لوقا فالابرص ، يغدو فريسيا غنيا ، والمراة تصبح من قبيل (غادة الكاميليا) (١) ، وفي الواقعة كلها لا يرد ذكر شيء عن الفقراء والمال ، والمراة هنا تقوم عرضا لا تقصدا

---

١ ــ عنوان رواية مشهورة لالكساندر دوماس الابن (١٨٢٤ ــ ١٨٩٥) تروي مأساة عاهرة باريسية تائبة احبته باخلاص شابا ، ثم آثرت التضحية بحبها لاجله .

بغسل قدمي يسوع بدموعها وتجففهما بشعرها ، فيلام لانه ترك امرأة خاطئة تلمسه . والقصة تكاد تكون اقتباسا عن متّى البعيد كل البعد عن خيال المسرح الباريسي . هناك محاولة واضحة لاسترعاء الاهتمام الانثوي بالامر . واللمع الخفيفة الهادية التي قدمها مرقص ، تناولها لوقا وأجرى فيها يد التحوير والتطوير ، وبزّ هذا الانجيلي اقرانه في الحديث الطلي عن ام يسوع وعن مشاعرها وأسهب في قصة النسوة اللاتي تتلمذن على يسوع وهو ما لم يذكره مرقس الا لتعليل وجودهن عند قبره . فلوقا يقدمهن قبل هذه المرحلة ، ويسمي لنا بعضهن ، وهكذا ترانا نتعرف بحنة امرأة قوزي خازن هيرودس وسوسان . كذلك تجد حكاية بينية استطرادية طريفة بين مريم ومرتا . وهناك ايضا مثل الابن السفيه (الابن الضال) ذلك المثل الجذاب المفرط في الخيال الذي ظل دوما نبراسا وقبلة لكل من شارل سرفيس (١) ودي كرو (٢) ، وثم ايضا قصة النسوة اللاتي يتبعن يسوع حتى الصليب ، وهو يلقي فيهن خطبة تبدأ بعبارة (يا بنات اورشليم) (٣) قد تبدو هذه التحويرات طفيفة ، الا انها في الواقع تحدث في جو القصة تبدلا

---

١ ـ Charles Surface : بطل مسرحية مدرسة الفضائح The School for Scandal وهي مسرحية هزلية شهيرة للكاتب الانكليزي شريدان (١٧٥١ ـ ١٨١٦) بطلها انسان في مقتبل العمر مستهتر لا يقيم وزنا لاي شيء .

٢ ـ Des Grieux بطل قصه مانون ليسكو الشهيرة وهي من تأليف الاب بريفوس (١٦٩٧ ـ ١٧٦٣) وتحكي مأساة شاب طيب الارومة علق بحب فتاة ساقطة قلب لا تقيم وزنا لاي شيء . يبلغ من تعلقه بها انه يصحبها الى منفاها بعد ان حكم عليها بالنفي .

٣ ـ لوقا ف ٢٣ .

عظيما . ان يسوع متّى لا يمكن ان يكون ما ندعوه بلغة العامة «بطل النساء» . (ومع حقيقة ان المطلب الجماهيري العام للاحاسيس والمشاعر ، بقدر ما لا يكون انسانيا صرفا ، هو رجولي المنحى اكثر مما هو نسائي !) . على ان لوقا اتاح الفرصة لانتشار تلك الصور التي تعلق الآن في غرف كثير من السيدات وفيها يظهر يسوع مثلما تشاهده في السينما في لورد (١) حيث يقوم بتمثيل دوره ممثل حسن الصورة . ان لمسة الواقع الوحيده التي لم يطمس لوقا آثارها متوخيا ابراز هذه النواحي من الطيبة في يسوع ، هي اللوم الموجه اليه لجلوسه الى المائدة دون ان يغسل يديه ، فقد ابقى عليها ونقلها كما هي ، لان حديثا هاما كان يتوقف على وجودها مثلما اوردُها دون تحوير .

انتظار المسيح

هناك وجه جديد آخر في رواية لوقا ، وهو انها تبدا بين مجتمع كل امرىء فيه كان يرتقب مجيء المسيح . في انجيلي متّى ومرقس يأتي يسوع الى دنيا مادية كدنيانا اليوم . والامل اليهودي العتيق جدا في مجيء المسيح لم يبدأ بالتمخض والانتفاض الا عندما تنبأ يوحنا المعمدان بأن سيأتي من هو اعظم منه . وبما ان يسوع بدأ تلميذا ليوحنا هذا ، وعُمّد على يده ، فلم يربطه احد بهذا الامل حتى نزل على بطرس الوحي المفاجىء الذي خلق ذلك الاثر المدهش العظيم في يسوع على انك تجد في انجيل لوقا عقول الرجال ، وعقول النساء بالاخص ، ملأى بالآمال المستوفزة بمجيء المسيح لا قبل ميلاد يسوع وحده ، بل قبل ميلاد يوحنا . وهذا

---

(١) - Lourdes : مدينة في جنوب فرنسا اقيم فيها مزار مقدس .

هو الحديث الذي يستهل به لوقا قصته فيقول انه فيما كـــان يسوع ويوحنا جنينين في رحمي والدتيهما ، اذ بالجنين يوحنا يرتكض في بطن امه عند اقتراب الجنين يسوع منه في زيـــارة للأمَّين التقتا بها . وفي يوم ختان يسوع يحيّ انفياء الرجـال والنساء الوليد بوصفه المسيح المنتظر .

على ان يوحنا نفسه لا يقتنع . فبادر الى ارسال شابين اليه في عهد متأخر جدا من حياة هذا (التلميذ) ليسألاه : أهو حقـا المسيح المنتظر ؟ ان هذا لقمين بالاهتمام لان يسوع يقدم لهما على الفور عرضا خاصا مقصودا لطائفة من المعجزات ، ويطلب منهما ان يبلغا يوحنا بما رأيا وان يسالاه بعد ذلك ما هو رأيه فيه ؟(١) ان هذا يتناقض مناقضه صريحة تامة لما اطلقت عليه «وجهة نظر روسو في العقيدة كما استخلصت من متى» . ان لوقا يكتشف عن كل غفلة الروائي وسذاجته بخصوص المعجزات . فهو ينظر اليها بوصفها «اشارات» ، اي براهين على الوهيـــه صانعها وليست مجرد قوى وسحر وشعوذة . أنه ليطرب للمعجزات كما يطرب للامثال .. فهي مادة لصياغة ابدع الاقاصيص . ولم يكن بوسعه ان يترك دعوة بطرس ويعقوب ويوحنا وهم في قوارب صيدهم ، تمر مرور الكرام بدون تلك الاعجوبة الهازلة اعجوبة اخراج السمك الكثير بالشبكة مما يؤدي الى غرق القارب، فيقفز بطرس ويهتف: « اتركني اغرق ، اني من الخطاة يا سيد !» مما يمكـن ترجمتـه بالآتي : «لا أريد شيئا بعد من معجزاتك ، فصيد السمك العادي يكفي قواربي» .

هناك طرائف أخرى في رواية لوقا منها : ان بيلاطس يرسل يسوع الى هيرودس الذي كان قد اظهر فضولا وحب استطلاع في

---

١ ــ لوقا : ف ٤٧ .

شأنه ، الا ان المعتقل لم يرض فضوله وخيب امله فقد ابى ان يحدثه . ويساء استقبال يسوع في قرية سامرية فيقترح يوحنا ويعقوب تلميذاه ، ان يدعو من السماء لتصب نارا على القريـة وتحرقها ، فيجيبهما يسوع بأنه ما جاء ليهلـك بل ليخلص . ويظهر ايضا تحامل يسوع على علماء الشريعة ، ويبرز كذلـك قراره بأنه لا يسلم لاقربائه برابطة اكثر من رابطتـه بالاغراب . وينتهر المرأة التي باركت امه . ولما كان هذا كله يناقض تقاليد الخيال والعاطفة ، فكان المفروض في لوقا ان يتحاشاه لو لم يعد مقتنعا بأن أخوة الانسان وأبوة الله هي الاسمى حتى من الاعتبارات العاطفية وقصة ذلك الفقيه الذي يساله ما هي اهم وصيتين من الوصايا العشر ، يحورها بشكل يجعل يسوع هو السائل بدلا من ان يكون المجيب (١) . واما عن العقيدة ، فلوقا لا يكون واضحا الا عندما تستثار متاعره . ان منطقه ضعيف اذ الصق جانبا من اقوال يسوع بعضها ببعض على نحو خاطىء . وهذا ما لا يصعب اكتشافه على من قرأها بترتيبها الصحيح وسياقها المنطقي فـي انجيل متّى . انه لم يستخرج جديدا في رسالة المسيح ويرى كغيره من الانجيليين ان غاية هذه الرسالة وجوهرها هو ان يسوع هو المسيح المنتظر منذ عهود طويلة . وانه لن يلبث بعد موته أن يعود الى العالم ليقيم فيه ملكوته كما هو مكتوب . وها هوذا قد بُعث حيا بعد ثلاثة ايام . على ان لوقا لا يسجل التعاليم بوصفها

---

١ ــ لوقا ف : ١٠ «واذ احد علماء الشريعة قد قام فقال ليحرجه : يا معلم . ماذا اعمل لارث الحياة الابدية ؟ فقال له : ماذا كتب في الشريعة (الوصايا) وماذا تقرا فيها ؟ فاجاب السائل : احبب الله ربك بجميع قلبك وجميع نفسك وجميع قدرتك وجميع ذهنك وأحبب قريبك حبك لنفسك . فقال له بالصواب اجبت اعمل هذا تحيَ ....» .

توطئة للتسيوعية او نبذا وشجبا لعاطفة الحقد ، (وهذا ما لا علاقة له بالمجيء الثاني بطبيعة الحال) وانما يذهب الى ابعد من هذين الفرضين فيأتي بمبدأ عجيب لا يتفق معهما وهو ان البشر يجب ان لا يدوروا حائرين متسائلين عن ملكوت السماء وهم يهتفون بلهفة «ها هوذا هنا !» او «ها هوذا هناك !» لان ملكوت السماء هو فيهم . الا ان لوقا لم يدرك بأن هذا يعود الى وجهه نظر في مسيحية مختلفة جدا . بل يبقى محافظا على وجهة نظره في الملكوت بوصفه موضعا حقيقيا ومكانا ثابتا كمدينة اورشليم او جزيرة مدغشقر .

الفصل الخامس

يوحنا [1]

قصة جديدة ، وشخصية جديدة

انجيل يوحنا هو في الواقع مفاجأة بعد الاناجيل الثلاثة الاولى . فمتّى ومرقس ولوقا يسردون الوقائع والاحداث نفسها بالانتظام ذاته (مع اختلاف طفيف عند لوقا) وأناجيلهم تدعى والحالة هذه بالاناجيل المتناظرة ، وهم بالاصل يقصون قصة

---

١ ــ ويعرف بيوحنا الحبيب . ولد بعد المسيح ببضع سنوات ، وهو شاهد عيان وسماع لما كتب من اخبار يسوع . انكر بعض المؤرخين نسبة هذا الانجيل اليه الذي دوّنه في أواخر سني حياته الى جانب ثلاث رسائل في اعمال الرسل، وسفر الرؤيا وهو آخر كتب العهد الجديد .

واحدة عن المعلم المتجول الذي جاء اورشليم في أواخر حياته . اما يوحنا فيصف معلما قضى فعلا مرحلة بلوغه كلها في العاصمة. بما يتخلل ذلك احيانا زيارات الى الاقاليم وروايته الاستطرادية لدعوة بطرس وابني زَبدى تختلف تماما عن رواية الآخرين . فهو لا يقول غير انهم كانوا صيادي سمك . ويشدد في القول متعمدا بأن يسوع لم يمارس هو نفسه عملية العماد وان كان قد عمّد بيد يوحنا الا ان تلاميذه مارسوها . وتنقلب عنده استغاثة يسوع الاليمة عندما ختم على مصيره في بستان جَسيماني (١) الى مجرد اقتراح يتقدم به المسيح في الهيكل في فترة تسبق ذلك بكثير . فيه لامبالاة وبرودة دم (٢) . يحاول يسوع في هذا الانجيل بشدة تفوق كثيرا ما نجده في الاناجيل الاخرى . وتعظم شكواه من التحامل عليه ، والإغراض الذي يلقاه ولا تجده ساكتا امام قيافا وبيلاطس . كذلك نجده يؤكد على قيامه وأكل جسده تأكيدا شديدا (فينصرف عنه تلاميذه جمعا باستثناء الاثني عشر) ويقول اشياء ظاهرة التناقض والسخف لا نجد لها القارىء العادي

جتسمانية : كلمة عبرية معناها «معصرة» .

لوقا ف : ٢٢ : «ثم ابتعد عنهم مقدار رمية حجر وجثا يصلي فيقول : ان شئت فاصرف عني هذه الكأس ولكنها مشيئتك لا مشيئتي» . وفي ق ف ١٤) : «ثم ابتعد قليلا ووقع على الارض يصلي لتبتعد عنه الساعه ستطاع قال : يا ابتاه انك على كل شيء قدير فأصرف عني هذه الكأس. كما انا اشاء بل كما انت تشاء» . وفي متى (ف: ٢٦) «وأكب على وجهه فيقول : يا ابتاه فلتبتعد عني هذه الكأس ان كان يستطاع لا كما انا أشاء ا انت تشاء» . ويريد شو ان يظهر الفرق بين ما اورده هؤلاء وبين ما (يوحنا : ف ١٢) «الآن نفسي قلقة فماذا اقول ؟ أأقول يا ابتِ نجني من لساعة ؟ وما بلغت الى تلك الساعة الا من اجل ذلك ؟ يا ابتِ مجد اسمك».

اي تفسير ويخلف عن نفسه في الاذهان انطباعا بكونه صوفيا مثقفا ، ولا نقول صوفيا سفسطائيا. ويبدو مختلفا في الشخصية والمران عن ذلك الواعظ البسيط الصريح الذي تراه في رواية متّى ومرقس او تلك الشخصية المدنية الساحرة اللينة الجانب عند لوقا . كان اليهود يقولون عنه في الواقع «كيف يعرف هذا الرجل بالكتب وهو لم يتعلم ؟» .

يوحنا : شاهد العيان الخالد

فضلا عن هذا كله فيوحنا يدعي بأنه شاهد عيان الى جانب كونه كاتب سيرة ، ويصرح بأنه «التلميذ الذي كان يسوع يحبه» ويزعم انه اتكأ على صدره في العشاء الاخير وسأله همسا عمن سيقوم من بينهم بتسليمه فهمس يسوع في اذنه جوابه قائلا : «هو الذي أناوله اللقمة التي أغمسها» ثم غمس لقمة خبز ورفعها وناول يهوذا فأكلها فدخل فيه الشيطان بعدها » . وهذه رواية اقرب الى العقل والطبع من الروايات الاخرى التي تجعل يسوع يشير بصراحة الى يهوذا دون ان تثير اشارته احتجاجا او تعليقا او انكارا . وهي تفترض ايضا ان يسوع تقصّد ان يؤثر بقواه المعجزة على يهوذا ليدفعه دفعا الى تسليمه . ويدّعي يوحنا فيما بعد أن يسوع قال لبطرس «لو شئت ان يبقى الى ان أعود فماذا يعنيك ؟» ويضيف يوحنا الى ما سبق بنوع ما من التواضع الساخر بأن عليه الا يدّعي بالخلود كما استنتج التلاميذ لان المسيح لم يستعمل هذا التعبير بل مجرد القول «لو شئت ان يبقى هذا الى ان اعود فماذا يعنيك ؟» . لم يزعم اي انجيلي آخر لنفسه هذه العلاقة الصحيحة بالمسيح او حتى الادعاء بأنه عاصره او كان من جيله (ليس ثم اي دلائل تؤيد لنا ان متّى العشار هو متّى كاتب

الانجيل) ، ويوحنا هو الانجيلي الوحيد الذي لا يمكن ان تتفق روايته لسيرة يسوع ووصفه شخصيته مع ما اورده متى عنهما . وهو يكاد يكون بمستوى واحد مع متى في ايراده الايضاحات تكرارا وبصورة سيئة ، عن اعمال المسيح قائلا مثله انها تهدف الى تحقيق وتطبيق النبوءات التي سبق ان جاد بها الانبياء وليس اكثر من هذا . وما يؤخذ عن يوحنا من انطباع سيء يفوق ما يؤخذ عن متى ، فهو يفوقه ثقافة وعمقا ، ويمتاز بصوفية عقلية غير طبيعية كانت مستحوذة عليه تماما ، فاكتشافه غباءه او سطحيته في هذا الامر البسيط يحملك على بغضه وضعف الثقة به رغم سحر اسلوبه الكتابي العظيم ، وخير مثال لذلك هو تغييره تلك الحادثة التي تمتاز بالفظاظة بخصوص المرأة الغنية، الى حكاية لطيفة هي حكاية المرأة السامرية (١) . وهذا ما يجعل مسألة كونه يوحنا التلميذ ، او الرجل المعاصر ليسوع بل حتى من الجيل التالي ، امرا يحوطه الشك والريب . كل هذا اصبح موضع اخذ ورد ولم يقبل به في الاخير . لكنني اكرر مرة اخرى : اني لا اهتم هنا ، بالنزاع الذي ينشب بين الخبراء المختصين بشؤون تاريخ الاناجيل ، لا لاني اجهل ذلك بل للسبب الآتي : لما كانت اقدم النسخ التي وردتنا هي مخطوطات يونانية كتبت في القرن الرابع الميلادي ، ولما كانت النسخ السريانية الميسورة ، هي ترجمات عن اليونانية فان الخبير في المخطوطات القديمة لن يشق عليه التوصل الى اية نتيجة يتفق انها تقع موقعا طيبا من نفسه او توائم عقيدته الخاصة ، وهو كذلك لن ينجح مطلقا في اقناع زملائه الآخرين من الخبراء الا عندما يتفقون في الميول والهوى والعقيدة ! ومن هذا استنتج ان تاريخ الرواية الاصيل لا يمكن تعيينه تعيينا ثابتا

---

١ ــ يوحنا : ف ٤ .

وعلينا الاعتماد على الانجيليين انفسهم. هناك كما رأينا ـ اختلاف واضح جدا فيما بينهم لا يترك شكا بأننا نتصدى لمؤلفين اربعة ، يختلفون فيما بينهم اختلافا بيّنا ، الا انهم ينتهون جميعا الى موقف واحد الا وهو توقع المجيء الثاني الذي يتفقون حوله بالقول ان يسوع قد وعد وعدا اكيدا لا شك فيه بأن يتم هذا (المجيء) في حياة اولئك الذين عاصروه . وكل مؤمن يصنف انجيلا بعد ان يموت آخر واحد من المعاصرين ينبغي له اما ان يرفض كل ما تعلق بهذا الوعد من روايات ، او بحذفه حذفا ، على اساس انه ما دام الوعد لم ينجز ، فليس بالامكان ان يتحقق» وان عليه الاقرار لليهود الذين كانوا احد منتقدي المسيحيين بأن يسوع هو اما دجّال واما ضحية وهم ، والا فكل الانجيليين عدا متّى يصرحون بشكل بيّن انهم مؤمنون . ومن الواضح ان رواية متّى ليست رواية مرتاب لذلك فأنا افترض بأن الاناجيل (بعد اطراحنا التضمين والدس) انما استمدت وقائعها من حكايات دوّنت في القرن الاول الميلادي . وانا اعتبر افتراضي هذا من قبيل المسلمات البديهية ، ولا استثني يوحنا من قراري ، لانه مع صيانته لمركزه (بادعاء انفراده بالتفات وحب خصوصيين من يسوع حتى انه وعده بحياة عجيبة تمتد الى ما بعد مجيئه الثاني) فيستنتج والحالة هذه انه يجب ان يكون من الاحياء حتى هذه الساعة ! وهنا لا يعني الاعتقاد ، بأن مزورا ادبيا قد يأمل في انقاذ الموقف بهذا الادعاء الواضح الزيّف . كذلك كانت رواية يوحنا في كثير من فقراتها اقرب الى حقائق الحياة العامة من رواية متّى البسيطة او قصة لوقا العاطفية . وقد يكون مرد هذا الى ان يوحنا هو رجل حياة وواقع اكثر من الثلاثة الآخرين ، عرف ما لا يعرفه غيره من كتّاب السيَر او من الروائيين مما يحدث فعلا بعيدا عن الكتب والمناضد ، لكن من المحتمل ان يكون امره هكذا ، لانه سمع ورأى ما حصل فعلا ، بدلا من جمع الاخبار . ولخبراء المخطوطات القديمة ،

ومشبني تواريخ اول الروايات ان يقولوا ما يشاؤون ، فيوحنا بادعائه انه ذو شهادة عيانية ، في حين صنّف الآخرون تاريخا لا غير ، انما ادعاء تدعمه ارجحية من الصدق تهفو اليها نفسي ، فأراه كمن بشر بعقيدة جديدة وجادل فيها فضلا عن كتابته قصصا . ان حجة الصدق المرجحة هذه ، قد تكون فنا دراميا تدعمه معرفة بالحياة العامة . ولكن علينا ان لا ننسى حتى في هذا ، ان افضل الفن الدرامي انما يتحقق باستخدام غريزة التنبؤ لاجل الوصول الى الحقيقة . ومهما يكن من امر ، فيوحنا لم يكن بالتأكيد ، ذلك الرجل الذي يؤمن بالمجيء الثاني . ومع هذا فهو يعرض تاريخا ثانيا بعد انقضاء التاريخ الاول . وفي الحقيقة انه لا مناص لنا من الاستنتاج بأن تأريخ أصول الاناجيل انما يبتدىء من الفترة التي كان يحتمل ان يقع خلالها المجيء الثاني في الوقت الذي عينه يسوع آجلا .

لاهوتية يسوع الغريبة

مع الشكوك التي تثيرها غرابة أطوار يوحنا فان قصته عظيمة الاهمية لاولئك الذين يتخذون الانجيل مرجعا لاستمداد دين عصري معقول . ذلك لان يوحنا هو الذي يضيف الى الروايات الاخرى اقوالا جديدة مثل : «انا وابي واحد» و«الله هو الروح» ، ولا يقتصر هدف يسوع على ان يكون للبشر حياة ، بل ان تكون تلك الحياة «اكثر غزارة» (امتياز يحتاجه كثيرا اولئك الذين يرون اما ان يكون الانسان حيا او يكون ميتا . ولا يفكرون بأهمية معرفة الى اي درجة هو حي ؟) وأن على البشر ان يتذكروا دوما ما قيل لهم في المزمور الثاني والثمانين (١) بأنهم آلهة وانهم مسؤولون عن

١ ـ يشير شو الى الابيات ٣ و٤ و٦ من المزمور المذكور وهي :

اعمال رحمة الله وعدله . وقد رجمه اليهود لهذه الاقوال ، ولما انبهم لغباوتهم وقصر نظرهم هذا ، برجمهم شخصا لم تقدم يداه الا على الحسنات والصالحات، اجابوا قائلين «انما نرجمك لتجديفك ولانك تتوهم نفسك إلها وانت انسان ، ولا نرجمك لاعمالك الصالحة» . وهو يصر مستندا الى (المزمور الثاني والثمانين) بأن الوهيتهم هي جزء من دينهم بتأكيد ذلك من الله نفسه فلا يمكن ان يكون ما يسندون اليه كفرا وتجديفا ذلك الذي رضي عليه (الآب) وارسله الى هذا العالم ليبشر بقوله (انا هو ابن الله) الا انهم لا يقبلون بهذا ، ولا يعيرون حججه آذانا صاغية . فلم ير بدا من الهروب تخلصا من ثورتهم عليه (١) . وهنا ينتاب المسألة غموض بالفرق الذي استحدثه يسوع بينه وبين الناس الآخرين . فهو يقول : ان كنتم انتم آلهة فآنا اذن إله من باب اولى ويوحنا هو الذي ينحله هذا القول كما يعزو اليه قوله «انا نور العالم» ويثبت يوحنا بصورة خاصة اهمية هذا النثار الذي التقطه لانه اعظم اهتماما بوطن خاص به حيث الموت لا يدرك الناس ، وحيث يصنعون من المعجزات ما يفوق صنيع يسوع نفسه ! وهو في الحقيقة يجعل يسوع وكأنه يعد البشر بهذا وعدا صريحا لا مرد له . وأخيرا يؤدي به الامر الى التعريض الجريء بأنه هو يوحنا أزلي الجسد خالد الحياة . مع هذا تراه لا يسقط الاقوال الهامة

«فلتحم الفقير ومن لا أب له .
فلتكن عادلا للمحتاجين والمنكوبين .
فلتنقذ الفقراء والمحتاجين .
ولتبعدهم عن الشرير .....
قلت انكم آلهة ، وكلكم اولاد العلي» .

١ ــ يوحنا : ف ٥ وف ٨ .

كافة . ومهما كانت هذه الاقوال مناقضة للعقيدة التي يهدف اليها بترو ومعرفة ، فانها تجتذب فبه الغريزة التي تكمن وراء الثقافة والتهذيب فتجعله يحشرها حشرا كالطفل الذي يلصق نجوما ذهبية براقة في ثوب دمية تمثل ملاكا . وهو لا يذكر خبرا عن (المعراج) وتنتهي روايته تاركا يسوع وهو عائد الى الحياة ليظهر بين آونة وأخرى متراثيا لتلاميذه . وفي احدى تلك المناسبات ، نراه يصف معجزة «تكثير السمك» وهي المعجزة التي وصفها لوقا في نهاية الفترة الاولى من حياة المسيح عند دعوته ابني زبدى .

يوحنا يتفق حول المحاكمة والصلب

يتابع يوحنا خطته في اظهار براعة يسوع كمناقش ومجادل فيجعل دوره اثناء المحاكمة أقل سلبية واكثر ايجابية . الا انه يقدم الرواية نفسها للواقعة ولا يختلف عن الانجيليين الباقين في جوهرها . وهكذا لا تعن له قط المسألة التي تمن لكل قارىء عصري كما لم تعن لمتى او لوقا او مرقس من قبله . تلك المسألة هي : لِمَ لم يدافع يسوع عن نفسه ويجعل الناس ينقذونه من يد عظيم الكهنة ؟ لقد كان ذا شعبية واسعة بحيث لم يجرؤ احد على منعه من طرد الصيارفة ، خارج الهيكل ، او ان يعتقل بسبب عمله هذا . وان عليهم ــ عندما اعتقلوا فيما بعد ، ان يقوموا بمهمتهم في غلس من الليل وفي بستان موحش . وكان بوسعه ان يجادلهم كما فعل كثيرا في الهيكل واجدا نفسه امام شريعة اليهود وشريعة قيصر في آن واحد، وانه ليملك فعلا القوةالبشرية التي تأتمر بأمره وتقف رهن اشارته ليدعم بها حججه العقلية فكل ما كان مطلوبا منه هو ان يلقي خطبة يلم بها شعث اتباعه ويحشدهم . وهو كما نعلم لم يكن مكموم الفم . سيكون جواب

الانجيليين : ان كل هذه الحجج والفروض لا طائل فيها ، اذ لو رغب يسوع في انقاذ نفسه وتجنيبها هذه المتاعب والآلام كافة لفعل ، بقبوله الاقتراح الذي صوّره يوحنا ، وأعني به ان يلقي معتقليه ارضا ويظهر قوته في عمل المعجزات . ولو انك سألت يوحنا اذن لماذا تركهم بعد ذلك واقفين على أرجلهم ليعذبوه ويقتلوه ؟ فانه يجيبك قائلا : هذا جزء من قضاء الله ، فقد شاءت ارادته ان يقتل ويدفن ليقوم ويبعث حيا . وان أجتناب هذا الامر (المقدّر) سيكون انكارا لارادة (الآب) وهذا هو التفسير الظاهري الوحيد . وسواء آمنت مع الانجيليين بأن يسوع كان بوسعه انقاذ نفسه بأعجوبة ، او انت قلت كعلماني عصري بأنه كان يستطيع ان يدافع عن نفسه دفاعا ناجحا ، فالواقع هو الواقع ، وظل يسوع يأبى ذلك حتى الاخير كما اتفقت عليه الروايات كلها. كان عليه ان يموت كما يموت الإله لا ان ينقذ نفسه كأحد الامراء (١) . ان الاتفاق حول هذه النقطة هو من الاهمية بمكان لان فيها البرهان على ايمان يسوع المطلق باعلانه عن ألوهيته ونفي صفة الدجل والكذب والادعاء عنه ، وقبوله الخانع بهذا المصير المريع دون ان يبذل مجهودا لانقاذ نفسه . ليس ثم مشعوذ او دجّال بلغت به قوة الاعصاب حدا يستطيع معه احتمال التبعات والنتائج الناجمة عن ايمانه بأنه سيقوم من القبر ويحيا حياة ثانية، بعد ثلاثة ايام من موته . وان نحن قبلنا القصة على علاتها ، فعلينا

---

١ ـ (الملاحظة هي للمؤلف) يسوع نفسه يشير الى المزمور الثاني والثمانين القائل: الناس الذين اتهموا الآخرين ظلما وبهتانا وقبلوا الشر (ومن ضمن هؤلاء طبعا كل السكان البيض في الجزر البريطانية وفي شمال القارة الاميركية دعك من الاماكن الاخرى) اولئك الذين حكم عليهم بعبارة «قلت لكم انكم آلهه وكلكم اولاد العليّ . لكنكم ستموتون كما يموت البشر وتسقطون كما يسقط الامراء» .

ان نؤمن بهذا وان نؤمن ايضا بأن وعده بالمجيء بالمجد وانشاء ملكوته على الارض اثناء حياة معاصريه ومعايشيه ، هو ما كان يعتقد بأنه قادر عليه وما يجب ان ينجزه . وهناك انجيليان يقولان بأن اليأس ادركه في آخر فترة من احتضاره وطفق يعتب على (الله) لانه تركه وتخلى عنه . اما الانجيليان الآخران فيجعلانه يلفظ آخر انفاسه بمحبة كاملة وبايمان قويم غير مزعزع ، بعد نطقه بالعبارة البسيطة «ها قد تم كل شيء» (١) . على ان اربعتهم يشهدون بأن ايمانه لم يخنه في لحظاته الاخيرة . وانه قام من بين الاموات بعد ثلاثة ايام . واظن من التجني الشك بأن الاربعة جميعهم انما كتبوا اناجيلهم وهم يعتقدون اعتقادا راسخا بأن الوعد الثاني سيتحقق ايضا . وانهم هم انفسهم سيظلون احياء حتى يشهدوا مجيئه الثاني .

---

١ ـ يوحنا : ف ١٣ . لوقا : ف ٢٣ . مرقس : ف ١٥ . متى : ف ٢٧ .

الفصل السادس

قبول الاناجيل

سيلاحظ اكبر قرائي سنا (وهم لا شك ممن اشغل نفسه بدرجات متفاوتة في الجدل حول امكان قبول الاناجيل كقصص واقعية ام رفضها) اني لم اثر هذه المسألة ولم احاول اثارتها ، واني قبلت الممكن تصديقه والمتعذر تصديقه على علاتهما وعلى حد سواء . فعلت ذلك لان قابلية التصديق هي حالة نفسية ذاتية كما يظهر ذلك بوضوح تطور العقيدة الدينية . تلك العقيدة التي لا تعتمد على الادلة والعقل . فهنالك ادلة على حصول معجزات قدر ما يوجد ادلة على حصول معركة واترلو وعلى مرور فيلق من الجنود الروس بانكلترا في العام ١٩١٤ وهم في طريقهم الى الحرب على الجبهة الغربية . واسباب الاعتقاد بمقتل (بومبي) شبيهة بأسباب الايمان بقيامة لعازر فكلا الحادثين صدقهما وانكرهما اناس يتساوى ذكاؤهم . نحن لا نستطيع تفسير

المعجزات كظاهرة مادية وها هي ذي تكتنفنا من كل جانب . ان الحياة بحد ذاتها هي معجزة المعجزات . والمعجزات بوصفها وقائع تخرق السبيل الاعتيادي الذي سلكه تجربتنا لا يخلو منها يوم واحد فكنيسة (المسيح العلمي) الزاهرة اقيمت على الكثير من هذه المعجزات . ولا احد يؤمن بكل المعجزات ، وكل امرىء يؤمن ببعض منها . وانا لا استطيع ان افسر كيف ان الذين ينكرون وجودا ليسوع يؤمنون ايمانا ثابتا مع هذا بأن شكسبير لم يكن الا بيكون (١) . وليس في امكاني ان افسر كيف ان الناس الذين يؤمنون بأن الملائكة نزلت وحاربت الى صفنا في معركة مونس وبأن معجزات كثيرة تحدث في لورد ومع هذا يرفضون الايمان بمعجزة سيلان دم القديس جانواريوس (٢) فيرفضون الموضوع باعتباره حيلة من حيل الكهنوت . ليس بمقدوري ان افسر كيف ان الناس الذين لا يصدقون رواية متّى عن الملوك الثلاثة الذين جاءوا بهدايا نفيسة لمهد يسوع ، يصدقون قصة لوقا عن الرعاة الثلاثة والاسطبل . ليس في مقدوري ان افسر كيف ان الناس الذين نشأوا على الايمان بالتوراة في شكلها الحرفي القديم وبوصفها سجلا صادقا ووحيا منزلا لا يأتيه بطلان ، ثم يرفضون تلك النظرة من بعد : يبدأون برفض العهد العتيق ثم يتخلون عن الايمان بوجود جهنم الكبريتية ، قبل ان يتخلوا عن الاعتقاد (لو خطر ذلك ببالهم) بوجود (جنة) حفلت بالتيجان والعروش

---

١ ـ اشارة الى الادعاء ، الذي لم تثبت صحته ، بأن بيكون هو مؤلف مسرحيات شكسبير .

٢ ـ St. Januarius . وقد اكد لي احد اصدقائي من القسس انه رأى الدم يسيل مدرارا في مراره في نابولي فلم استطع النفي الا جانبا صغيرا من القصة . وهو موضوع وجود الرأس !

والقيثارات . لا يمكنني ان أفسر كيف ان الناس الذين لا يؤمنون بأي شكل من أشكال المعمودية ومع هذا يؤمنون بالتلقيح ضد الاصابة بالامراض ، ايمانا شبيها بتعصب مستنطقي محاكم النفتيش الصارم . اني مقتنع لو ان بضعة عشر مرتابا وضعوا في عمودين متوازيين ــ قائمة بالوقائع التي وردت في الاناجيل، يدرجون في احدهما ما هو قابل للتصديق في عرفهم وما هو ليس قابلا للتصديق ، لرأيت ان الاختلاف ما يلبث ان يبدو في قوائمهم. فالعقيدة بالضبط هي مسألة ذوق .

الموضات في العقيدة

ان مسائل الذوق هي على اغلب الراي مسألة موضة (مودة) ونحن على وقوف بالاختلاف ما بين موضات العقيدة في القرون الوسطى وموضاتها في العصر الحديث . فمثلا مع اننا كنا اكثر سذاجة مما وجدنا عليه الناس في القرون الوسطى ، بتعاوننا مع جماعات كثيرة من السحرة والمشعوذين وقارئي البخت والعجائبيين ووسطاء الاتصال بالموتى ومكتشفي إكسير الحياة ومحولي المعادن الى ذهب ومبرئي الاسقام الى درجة قد لا تحلم بها القرون الوسيطة . ومع هذا فنحن نتناول معجزاتنا بالشكل الذي يقنع عقلية القرون الوسيطة . كانت الاعداد الحسابية تستهوي عقول القرون الوسيطة كما تستهوينا الآن لصعوبة معالجة امرها وفك طلاسمها ولأن أحذق الحاسبين النيوتنيين واللبنتزيين يقفون في صف اعاظم الرجال . هناك اعداد معينة شائعة استهوت عقلية القرون الوسيطة كعدد ٧ مثلا . ربما لانه وتري ، وربما لان العالم قد خُلق في غضون سبعة ايام ، او لوجود سبع أنجم في مجموعة (الدب الاكبر) ولعشرات أخرى من الاسباب كانوا مستعدين للاعتقاد

بأي شيء فيه سبعة او مضاعفاتها . خذ مثلا الخطايا المميتة السبع وسيوف الحزن السبعة في قلب العذراء ، وابطال المسيحية السبعة فكلها تبدو اشياء واضحة معقولة مسلما بها لمجرد انها سبعة ! والعكس هو الصحيح بالنسبة لنا . فعدد ٧ عندنا هو رمز الوهم والتعوذة . ونحن لا نعتقد بما يقلّ عن الملايين ! ان طبيب القرون الوسطى ينال ثقة مريضه عندما يقول له ان احشاءه تنهشها سبع دودات في حين ان تشخيصا كهذا يقضي على سمعة طبيب عصرنا : وطبيب عصرنا يقول لمريضه انه عليل لان كل قطرة من دمه تعج بملايين الجراثيم ، ولا يسع المريض الا ان يؤمن بقوله فورا ، دون جدال او احتجاج . ولو ان اسقفا من الاساقفة قال لوليم الفاتح (١) ان بُعد الشمس عن الارض ٧٧ ميلا لصدقه، لا احتراما للدين فحسب بل لانه كان سيشعر فضلا عن هذا ، بأن سبعة وسبعين ميلا هي المسافة الصحيحة المعقولة . والقيصر الالماني الحالي الذي لا تزيد معرفته بالموضوع عن معرفة وليم الفاتح كان سيرسل هذا الاسقف الى مستشفى الامراض العقلية. على انه كما اعتقد يقبل دون ما تردد تخمينا يبلغ اثنين وتسعين مليون ميل وتسعة اعشار المليون او ايا كان من الارقام الضخمة (٢) .

المعقول والواقع

عليّ هنا ان اذكّرك بأن قابلية التصديق فينا ، يجب الا تقاس

---

١ ـ وليم الاول ملك انكلترا (١٠٢٧ ـ ١٠٨٧) .

٢ ـ البعد الذي قدّره الفلكيون والرياضيون . وهو اليوم مقبول علميا .

بحقيقة الاشياء والتي نؤمن بها . لم يكن الناس سذجا عندما آمنوا بأن الارض مسطحة . فقد كانوا في الواقع يستخدمون البديهيات فاذا سئلوا اقامة البرهان على استواء الارض قالوا بكل بساطة : «الا انظر اليها ! » وأولئك الذين يرفضون الاعتقاد بكرويتها ، انما يتعاطون (شكوكية) ناجعة . ان رجل العصر الذي يعتقد بكروية الارض ، هو في منتهى السذاجة . فالرجال الذين يعتقدون باستوائها يدفعونه الى الهياج والعنف اثناء الجدال في المسألة ، عندما يفهمون ما يرونه حقا . انما اذا واجهت مثل هذا الانسان بنظرية مؤداها ان الارض اسطوانية الهيئة او حلقيتها ، او هي على شكل زجاجة الساعة ، فسيرتبك ويفلت زمام الامر منه . قد يكون ما يؤمن به صحيحا لكن ليس هذا سبب ايمانه به، انه يؤمن لان المسألة تستهوي خياله بصورة ما ، يصعب عليه تفسيرها . لو سألته لماذا يعتقد بأن الشمس تبعد بضعة وتسعين مليون ميل عن الارض ؟ فاما سيكون الجواب اعترافه بجهله ، واما سيقول ان نيوتن برهن على صحة تلك المسافة الا انه لم يقرأ تلك الرسالة التي برهن بها هذا العالِم على الامر . بل هو لا يدري ان الرسالة كُتبت باللاتينية . ولو انك الحفت على بروتستانتي من ايرلندا الشمالية بالاجابة على هذا السؤال : لماذا يعتبر نيوتن مرجعا ثقة ويعصمه من الخطأ . ولماذا يرى القديس توما الاكويني(١) أو البابا من الكاذبين المتعلقين بالاوهام اللذين سيحظى برؤيتهما بعد موته : هو في موضع ما من الجنة ، وهما يُشويان شيئًا في النار الابدية ! او لو سألتني لماذا اضع موضع الاهتمام الجدّي تحديد الكولونيل سر آلمروث رايت عدد الجراثيم السبحية التي يحتويها حجم معين من مصل الدم ؟ في حين لا يسعني غير

---

١ ـ St. Thomas Aquinas ،١٢٢٧ ـ ١٢٧٤) اعظم اللاهوتيين الكاثوليك.

الضحك مع التخمينات الغابرة الاولى لعدد الملائكة الذي يمكن ان يقف على رأس ابرة ! ليس ثمّ جواب معقول استطيع الادلاء به . الا ان السابوعات والملائكة قد بطلت موضتها بعض الشيء . وان البليونات والجراثيم السبحية هي آخر مودة . اني لا استطيع ان اخبرك حقا ، لماذا كان بيكـون (١) ومونتين (٢) وسرفانس (٣) مودة شائعة من ناحية الثقة او عدم الثقة بأقوالهم ، مودة تختلف اختلافـــا بيّنا عن مـــودة المحترم بيده بايرز بلاومـــان (٥) والفلاسفة الالهيين من مدرسة الاكويني ـ ارسطوطاليس الذين لم يكونوا على وجه التأكيد اكثر غباء وكانت الحقائق نفسها مبسوطة أمامهم . وبافتراضنا ان قادة الفكر هؤلاء قد انجزوا تعليل عقائدهم لانفسهم ، تزداد صعوبة حلّي هذا السؤال : لماذا كانت نتائجهم ومصادرهم تبدو مقنعة لجيل من البشر ، وملحدة غير مقنعـــة لجيل آخر ، في حين لم يتتبع أيهم الموضوع بالتعليل ومحـــض الوقائع لذلك فمن العبث البدء في الخصام مع القارىء حول ما يجب الايمان به من الاناجيل وما يجب الا يؤمن به فمن السخف والعبث محاولة وضع حدود فاصلة اذ ستكون اعتباطية للغاية .

---

١ ـ Francis Bacon (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) فيلسوف انكليزي ورجل دوله .

٢ ـ Montaigne (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢) كاتب فرنسي وقاص اسباني النزعه، تعتبر كتبه من بين اعظم كتب الحكم والتأملات الفكرية . وأسلوبه لا يخلو من نكتة ولهجة مرح .

٣ ـ (١٥٤٧ ـ ١٦١٦) روائي اسباني ومسرحي اشتهر بروايته بدون كيشوت (Don Quixote .

٤ ـ المحترم (٦٧٣ ـ ٧٣٥ م) مؤرخ ومفكر ديني انكليزي .

٥ ـ ملحمـــه طويلة شعريـــة بهذا العنوان « رؤيا بايـــرز بلاومان » The Vision of Piers Plowman » نظمها وليام لانغلند Langland

يخبرنا يوحنا الانجيلي ان يسوع عندما اعلن تفوقه الالهي بصراحة تقديم جسده ودمه ، تركه كثير من تلاميذه حتى انخفض عددهم الى اثني عشر . كثير من القراء اليوم لن يقووا مثلهم على الصمود هذه المدة الطويلة وسيستسلمون عند اول معجزة . اما الآخرون فانهم يميزون بين انواع المعجزات ، فيقبلون معجزات الشفاء ويرفضون معجزات اطعام الجموع الغفيرة وستكون معجزة السير فوق الماء عند بعضهم مبالغة اسطورية في قابلية العوم تنتهي بانقاذ اعتيادي لحياة بطرس . واما إحياء العازر (١) فستكون تمجيدا مماثلا لمأثرة عادية من مآثر عمليات التنفس الاصطناعي . في حين سيسخر الآخرون منها بوصفها حيلة مدبرة مثّل فيها العازر دور التمريك . ان بين الرفض الروائي لهذه المعجزات (بوصفها محض خرافات) وبين قبولها على علاتها كما قصد الانجيليون منها ، تجد تم ظلالا عديدة من الشك واليقين ، من العطف والتهكم ! والمسألة ليست مسألة كونك مسيحيا ام غير مسيحي . فالعربي المسلم قد يقبل حرفيا وبدون اي اعتراض ، اجزاء من القصة التي يتحتم على رئيس اساقفة انكليزي ان يرفضها او يستبعدها . ان كثيرا من الثيوصوفيين (٢) وهواة الحكمة الهندية ممن لم يدخلوا كنيسة مسيحية الا لغرض سياحي، ستهز مشاعرهم اجزاء من انجيل يوحنا لا تعني شيئا عند احد من رجال الصناعة الانكليز الورعين الواقعيين . ان كل قارىء

---

١ ـ متى : ف ١٤ ويوحنا : ف ١١ .

٢ ـ أولئك الذين يؤمنون بالعقيدة المسماة بهذا الاسم : Theosophy وهي مذهب فلسفي ديني ، يفترض وجود الله كجوهر روح كائن في الكون كله وهو مصدر كل حياة وكل صلاح . اما الشر فهو من عمل الشر بسبب طمعهم وتهافتهم على امور الدنيا .

اخذ من التوراة كل ما استطاع اخذه وتقبله . وأنا بإلمامي إلمامة سريعة بروايات الانجيل لم افرض على قارئي اي تحديد لا بخصوص صحتها ولا بخصوص قابلية تصديقها . اني لم اقم بغير إخباره وتذكيره ــ وفق ما تتطلبه كل حالة ــ بما تتحدث لنا هذه الروايات عن بطلها .

مسيحية التماثيل ومخاطرة تحطيم التماثيل

ينبغي لي ان انبذ الآن هذا السلوك لاقوم بتحويل اهتمام القارىء تحويلا جديا ازاء هذه المسألة ، وهي : هل ان ايمان القرون الوسيطة وراي الميثوديين بالجانب الفدائي (الخلاصي) والعجائبي من الانجيل قد خيب ظنوننا كما خيب ظنون قادة الفكر الحديث ؟ ومتى كان ذلك ؟ واذا كان الامر كذلك ، استخلف اي شيء بعد هذا من رسالة يسوع . وبعبارة أخرى هلا سنقوم بالقاء الاناجيل في قمط الاوراق المهملة ، او وضعها على رف القسم الخاص بالروايات الخيالية من مكتبتنا ؟ اني لاتجاسر على القول بأننا سنقدم على هذا خلافا لحالة ذلك الرجل في لغز «بنيان» لما وجد ما عنده يزداد بقدر ما القى منه . وسنتخلص مبدئيا من عنصر الشرك في عبادة المسيح بعبادة أخرى من عبادات الايقونات وبهذا اعني حرفيا تلك العبادة التي تقدم لصوره وتماثيله وللقصص المعقولة وغير القابلة للتحوير المروية . ان محك ذلك وآية تسلطه على الفكر هو انك تتكلم وتكتب عن يسوع بوصفه إلها ما زال ذا فاعلية . فان فزع امثال هؤلاء العبّاد سيكون اعظم من فزع دون جوان (١) عندما نزل التمثال عن قاعدته وشاطره عشاءه .

---

١ ــ اشارة الى احد الروايات عن هذه الشخصية الاسطورية . فبعد ان قتل ابا حبيبته في مبارزة ، وعلى سبيل المزاح دعا تمثالا للقتيل للعشاء معه ، فقبل التمثال الدعوة ، وبختامها سحبه معه الى جهنم ليلقى جزاء اعماله .

انك قد تنكر ألوهية يسوع ، وقد تشك حتى في وجود شخص بهذا الاسم جاء الى الحياة . قد تنبذ المسيحية وتتحول لاعتناق اليهودية أو الاسلام او الشنتوية (١) او عبادة النار (٢) ، ولن يفعل عُبَّاد التماثيل اكثر من وضعك في صنف الملاحدة والكفرة وهم منك ساخرون برصانة وهدوء ! ولو تجاسرت فسألت : كيف كان سيبدو وجه يسوع لو حلق شعر ذقنه وازال لحيتـــه ، او تساءلت : ما مقاس الحذاء الذي كان يلبسه يا ترى ؟ وهل انه شتم ولعن عندما دخل قدمه مسمار في دكان النجارة . او عندما عجز عن تزرير عروة ردائه وهو في عجلة من امره ؟ وهل قهقه ضاحكا للاجوبة المسكتة التي كان بها يحيّر عقـــول الكهنة حين يحاولون الايقاع به او لجرّه الى التجديف والزندقة ؟ حتى لـو عمدت الى رواية اي جزء من قصة حياته بتعابير عامية مبتذلة اصيلة فانك ستحدث استنكارا وفزعا لا مزيد عليهما بين عُبَّاد التماثيل . انك ستجعل (الصورة) تخرج من اطارها والتمثال ينزل عن قاعدته والرواية تغدو حقيقة واقعة بكلّ النتائج التي تفـوق المحصر ، المتدفقة من هذه المعجزة المخيفة , في هذه اللحظـــة وامثالها فحسب ، ستدرك ان عبدة التماثيل لم يتصوروا المسيح ولو للحظة واحدة ، شخصا حقيقيا او قوة من القوى ، كالكهرباء لا تحتاج الى استحداث ميكانية سياسية مناسبة لتطبق علـــى شؤون البشر وتعطي نتائج ثورية .

من هذا ترى ، ان الخطر في مجتمعنا ليس بالكفر وانما الخطر هو بالايمان الاعمى . ففي الوقت الذي ندرك (وهو امر محتمـــل

---

١ ــ الشنتوية هو دين اليابان القديم . ويتلخص بالايمان بأن الظواهر الطبيعية ارواح يمكن ان تنفع او تضر وان الناس اذا عبدوها هدتهم الى العمل الصالح.

٢ ــ يقصد بها المجوسية او الزردشتيه .

وقوعه في اي يوم) بأن يسوع ليس تلك الصورة الجامدة الوديعة التي تخيلتها ايها القارىء الى هذه اللحظة . وانما هو مركز تجمع الاتجاهات لكل الميول الثورية التي تحاربها كل الدول والكنائس المقررة قانونا . وعليكم جميعا عندئذ ان تحتاطوا لانفسكم لانكم نفختم الحياة في الصورة . وقد يعجز الرعاع والسوقة عن تحمل هذا الهول .

ما هو البديل عن برأبا

ولكن ينبغي الوقوف في وجه السوقة اذا كان في ذلك انقاذ المدنية ، ولا يحتاج الامر الى حرب كالحرب الحالية (١) للبرهان بأن كلاً من (المسيح الايقوني) و(مسيح بولس الرسول) قد فشلا في تحقيق خلاص المجتمع البشري . ففي الوقت الذي اكتب هذا ، أشيع ان الاتراك يوقعون بالارمن المسيحيين مذبحة لم يسبق لها مثيل . لكن اوروبا ليست الآن في وضع تستطيع فيه الاحتجاج . فمسيحيوها يذبح بعضهم بعضا بكل الآلات والادوات التي وضعتها المدنية في متناول يدهم وبالحماسة التي تحدوهم وهم يقتلون الاتراك . ان البرابية منتصرة في كل مكان والنفع الذي تناله من انتصارها، هو انها تقودنا جميعا الىالانتحار المصحوب بمظاهر بطولية واكاذيب مدوية . والآن فان امثالي من الذين يرون النظام الإجتماعي البرابي نظاما فاشلا وان (قوة الحياة) (٢) او ما شئت ان تسميها ، لا يمكن ان يعتريها اي وهن

---

١ ـ اي الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ .

٢ ـ وهي الفكرة التي استخدمها شو لفلسفته واطلق عليها تعبير Life Force يصفها بالقوة الدافعة ، او الروح ذات الفاعلية في النساء والرجال ، فتدفع افضلهم الى التطور والتقدم توصلا الى مخلوق انساني اكثر نبلا .

او فشل ، بل ستتخطى الانسانية بتوليد نوع أرفع منها ، ان لم نفلح في السيطرة على المشاكل الناشئة من تضاعفنا العددي . هؤلاء ما فتئوا يقولون دوما ان يسوع كان ذا رسالة حقة وانه شعر بسحر شخصيته وعقيدته وهذا لا يعني انه يجب علينا اليوم ان نحلم بالادعاء بأي قوى خارقة للطبيعة له ، بله أقل كثيرا من القوى العلمية التي تلازم فيلسوفا عصريا مثقفا او فقيها قانونيا . ولكن عندما نتخلص تماما من المسيحية التي ترتكز على عقيدة (الخلاص) او حتى عندما نتحامل على المسيح بخصوص علاقته اللاارادية بالمسيحية الخلاصية ونلتزم بدراسة علمية خالصة في الاقتصاد وعلم الاجرام والبايولوجي فسنجد استنتاجاتنا العملية هي بالجوهر عين استنتاجات يسوع نفسه واذ ذاك سيغمرنا الفرح وسيشجعنا ذلك على الاقرار بأننا نلحق به ظلما صارخا ، وأن هالة نور العلم التي تحيط برأسه في الصور المختلفة المعمولة له قد تترجم يوما ما ، بأنها هالة نور العلم اكثر مما تترجم بأنها اظهار المشاعر ، او وصمة عار وثنية .

وهكذا تجد العقائد التي ثبتها يسوع هي التالية تقريبا :

١ ـ تخلّص من الملكية الخاصة بالفائها في ملكية المجموع . وابعد عمل يومك عن امر احتسابه بالاجر النقدي . ان تركت طفلا يجوع فانك تترك (الله) جائعا. انبذ كل قلق بخصوص طعام نهار غد وليلة غد، لانك لا تستطيع عبادة سيديك : الله ومأمون (١) .

٢ ـ ان ملكوت السماء هو في نفسك وانت هو ابن الله والله هو ابن الانسان . الله هو روح تجب عبادته بالروح وبالحق . وليس هو (جنتلمانا) كبير السن يمكن الاستجداء منه ورشوته .

---

١ ـ كلمة آرامية تدل على الغنى . وتستعمل اليوم للاشارة الى اله المال الخيالي .

نحن اعضاء بعضنا عضو لبعض ، لذلك لا يمكن ان تجرح جارك او تعينه من دون ان تجرح نفسك او تعينها . الله هو ابوك وانت هنا لاجل ان تقوم بعمل الله . وانت وابوك واحد .

٣ ـ تخلّص من المحاكم والقضاء والعقاب والثأر والانتقام . احب جارك كما تحب نفسك لانه جزء منك وأحب اعداءك لانهم جيرانك .

٤ ـ تخلّص من قيود الاسرة . وكل أم تلقاها هي أم لك قدر ما هي أم لك تلك التي حملتك في بطنها . وكل رجل تلقاه هو اخ لك بقدر ما هو اخوك ذلك الذي حملته أمك جنينا بعدك . لا تبدد اوقاتك في تشييع جنازات الموتى من آلك واصحابك ولا تجزع على اقربائك ، فلتكن مهتما بالحياة ولا تلق بالا الى الموت ، ففي البحر من السمك الجيد اكثر مما خرج منه واحسن . وفي ملكوت السماء الذي هو في نفسك (كما أسلفنا) لا يوجـــــد زواج ولا زوجات ، لانك لا تستطيع ان توقف حياتك على عبادة إلهين: الله، وزوجك .

هذه مقترحات في غاية الاهمية ، واهميتها تزداد يوما بعد يوم طالما يدفعنا العلم والتجربة الى التفكير فيها تفكيرا صالحـــا باطراد متزايد . اننا لنضيع وقتنا في تقديمها الا اذا اقمنا بناءها بشكل معقول . ويجب علينا ان نفترض ايضا ان الرجل الـــذي تبين طريقه خلال مثل هذه الكتلة من العاطفة الشعبية والوهم التي تقف بيننا وبين شعور تقييم حقيقي لمثل هذه التعاليم ، كان عليما تمام العلم بكل الاعتراضات التي تبدو لسمسار بورصة متوسط الحال في اول خمس دقائق . صحيح ان العالم يتحكم الى درجة كبيرة بتلك الاعتبارات التي تلوح لسماسرة البورصة في اول خمس دقائق ، ولكن لما آضت الدنيا سيئة الحكم (لهذا السبب) الـــى درجة لم يعد اولئك الذين يعرفون الحقيقة ، بقادرين على احتمال العيش فيها الا بصعوبة . فان اعتراض سمسار بورصة متوسط

الحال ، يتضمن في ذاته (قضية مبدئية Prima Facie
لاي اصلاح اجتماعي .

تحويل المسيحية الى ميدان التطبيق الحديث

والامر سواء .. وعلينا بترتب تحويل وصايا يسوع ومقترحاته الخلقية الى ميدان التطبيق العملى الحديث . لو سألنا سمسار البورصة هذا ان يعمل طبق ما نصح به يسوع تلاميذه فسيجيبنا (وهو مصيب) : انكم تنصحوني بأن اعود متشردا أفاقا ! ولو حضضنا غنيا على بيع كل ما يملك ويعطيه للفقراء ، فسيعلمنا بأن مثل هذه العملية متعذرة . اذ لو باع اسهمه وأراضيه ، فسيستمر شاريها في تلك الاعمال الجائرة التي يظلم بها الفقراء . ولو عمل الاغنياء قاطبة بهذه النصيحة في وقت واحد فستنخفض اسعار السندات الى الصفر وتصبح الاراضي غير قابلة البيع . ولو باع رجل ما يملكه ، والقى المال الى ساكني الاحياء الفقيرة فالنتيجة الوحيدة ستكون اضافة نفسه ومن يعيلهم الى قائمة الفقراء ، بينما لا يكون في عمله فائدة للفقراء اكثر من ان يتيح لقلة منهم فرصة لاقامة حفلة سكر معربدة ! ويجب والحالة هذه ان لا يغيب عن بالنا ما جرى في ايام يسوع وفي العصور التي تلت موته وكيف زادت ايام الفترتين ظلاما على ظلام حتى بلغ أوجه (باستثناء فجر عصر الاصلاح الديني والنهضة الاوربية الزائف القصير الامد) بليل التجارة في القرن التاسع عشر ، وقتما ساد الاعتقاد بأنك لا تستطيع ان تصلح من حال الناس بقانون يصدره البرلمان، تراك في أيامنا هذه ، شديد الثقة بأنك لا تستطيع تحسين اوضاعهم بطريق اخرى غير هذه الطريق . وان الرجل الافضل من ابناء جلدته حالا هو مصدر ازعاج وضرر ، وان الغني يجب ان يبيع لا نفسه وحدها بل نفوس كل طبقته وان ذلك لا يمكن ان يتم الا

عن طريق وزير المالية . وان التلميذ لا يمكن ان يحصل على خبزه بدون مال يدفعه ، الى ان يوجد خبز مجاني للجميع ، وهـــذا يتطلب تنظيما بلديا مدعما بالرسوم والضرائب . ان كون الانسان الواحد عضوا من الانسان الآخر يعني هذا : رجل واحد = صوتا واحدا . امرأة واحدة = صوتا واحدا ، اقتراعا واحدا ، دخولا متساوية الخ ... من الاعمال السياسية . حتى في سورية على عهد يسوع لم يكن بالوسع استيعاب تعاليمه وتفهمها عن طريق سلسلة من انفجارات صلاح واستقامة مستقلة . فظهر ذلك في وحدات منفصلة من المجتمعات البشرية ، ولم يكن بوسع اورشليم نفسها ان تفعل ما لا يمكن مجتمع قروي ان ينهض به . وما لم يكن بوسع روبنسن كروزو نفسه ان يقدم عليه لو لم يُمل عليه وجدانه وواجب الطبيعة الصارم قاعدة عامة جاهد في سبيلها نصف دزينة من أمثال روبنسن كروزو للظفر بتعويضات لم يرضوا عنها رضاء تاما . فما لم يكن تحقيقه ممكنا في اورشليم او في خـــوان فرنانديز (١)، لا يمكن انجازه في لندن ونيويورك وباريس وبرلين.

وعلى اية حال ، ينبغي لنا ان نترك المسيحية خارج نطاق امور البشر الحياتية صالحة كانت هذه الديانة ام طالحة ، خاطئة ام مصيبـــة ، حتى تصير قابلة التطبيق عملا ، بعـــد استحداث مستنبطات سياسية معقدة فيها . واذا زعمنا ان واعظا مـــن الصحراء تحت حكم بيلاطس البنطي او بيلاطس نفسه بما يملك من الحكمة الرومانية يتمكنان من وضع نظام سياسي عملي مـــن العقيدة المسيحية او اي نظام اخلاقي آخر غيرها لاجل تطبيقه في عالم القرن العشرين ، اذا زعمنا هذا فاننا ننبذ المسيحية بأشد مما

---

١ – جزيرة في المحيط الهادىء عاش فيها البحار الاسكتلندي الكسانـــدر سلكيرك وحيدا من١٧٠٤ الى ١٧٠٩ ، ومن حياته هذه استوحى دانييل دفو قصته روبنسن كروزو .

نبذها نيرون وكل مضطهديها الآخرين الذين اصابوا نجاحا في عملهم هذا . ان الورع والتقى الشخصي ، مضافا الى واقع انك لا تستطيع ان تصلح من اخلاق الناس بقانون يستنه البرلمان ، انما هما وسيلتا دفاع فعالة يلجأ اليها الناس الذين يقرون بارادة منهم او بحالة لاشعورية لكي لا يدعوا يسوع او اي مصلح آخر يتدخل في امر ما يملكونه من مال ومقتنى .

الفصل السابع

الشيوعية الجديدة

والآن فلنر ماذا تقول التجربة الحديثة وعلم الاجتماع في اقتراح يسوع وجوب التخلص من مقتناك واعتباره ملكا مشاعا . ان المرء ليسمع فرّيسيي اورشليم وجرزين وبيت صيدا (١) يقولون : لو قمت يا صاح بتقسيم ثروة اليهودية قسمة مساواة في هذا اليوم بالذات فستجد قبل نهاية السنة معدمين واغنياء ايضا . ستجد فقراً وثراء مثلما تجده اليوم ، لان وجود المكسال والمثابر ، والمقتر والمبذر ، والسكّير والعزوف عن الخمر ، هو امر مفروغ منه. وكما أصبت كبد الحقيقة بقولك «سيكون الفقراء معنا دائما» وبوسعنا ان نسمع الجواب «الويل لكم ايها الكاذبون المراؤن ، ها انتم في هذا اليوم بالذات ، قد قسمتم ثروة البلاد

---

١ ــ جرَزين او كورزين هي مدينة قريبة من بحيرة طبرية لم يبق منها الآن اي اثر ، و(بيت صيدا) كانت بلدة على شاطىء البحيرة في الشمال الشرقي .

بانفسكم . كما يجب ان يتم ذلك يوميا . (ذلك لان الانسان لا يمكن ان يعيش بصوره أخرى غير العيش من اليد الى الفم وهو عيش الكفاف . ولا يمكن للبيض والسمك ان يحملا الى الابد) . ومع هذا فقد خلت قسمتكم اياها من كل عدالة ؛ وكذلك قلم ان تأنيبي لكم بالابقاء على الفقراء بينكم على الدوام ، بأنه قانون يسري عليكم مستخلصين بأن هذا الشر مؤبد باق ، وان رائحته الكريهة ستظل تزكم انف الله الى الأبد الآبِد . ولذلك يخيل ليان العازر سيجدكم قريبين من الاغنياء في جهنم» . ان (الراسمالية الحديثة) كانت قد تولت القضاء على الاحتجاجات الاولية حول التفاوت في الثروات . والفرّيسيون انفسهم كانوا قد نظموا (شيوعية راس المال) فالملكية الشائعة هو الامر اليومي الواجب اتباعه ، وكل محاولة للعودة الى الملكيات الفردية كأساس لانتاجنا قد تؤدي الى تدمير مدنيتنا تدميرا كاملا يفوق ما نخلّفه من الدمار عشر ثورات. انك لا تستطيع ان تقوم بفلاحة حقول برمتها في يومنا هذا الا بعد ان يصير الفلاح تعاونيا . الا فلترافق مثلا ، حامل اسهم الى سكة الحديد التي يملك فيها اسهمه ولتطلب منه ان يحدد لك مسافة معينة من تلك السكة يعود له شخصيا ، او ان يشير الى المقعد الذي يملكه من عربة القطار ، او ان يدلك على عتلة معينة من تلك القاطرة لا احد ينازعه في ملكيتها . ولسوف تراه يفر منك فرار السليم من المجذوب . وان انت حاولت كحنّنيا وسفّيرة(١) الاحتفاظ بحانوتك الصغير او ما اليه وتحبسه عن الملكية العامة الموحدة المتمثلة بالترست او الكومباين او الكارتيل (٢) فان

---

١ ــ اعمال الرسل ف ٥ . دعا عليهما الرسول بطرس وقتلهما لاخفائهما مالهما عن الجماعة .

٢ ــ Trust, Combine, Kartel ، مصطلحات اقتصادية تطلق باختلاف طفيف في ما بينها على مجموعة من الصناعيين او الماليين ، يتفقون

الترست سيصعقك ويجمدك ويوثق كتافك وثاقا محكما ، وبالاخير يوجه اليك ضربة صناعية قاتلة كضربة الرسول بطرس القاضية ! لم يعد ثم اي مجال بعد الآن لطرح سؤال عملي حول شيوعية الانتاج ، أعني حول التقسيم اليومي له ، وهو اول ضرورة من ضرورات المجتمع المنظم .

اعادة التوزيع

واليوم لا تدرك حاجة بيسوع لاقناع اي شخص بأن نظام التوزيع عندنا هو على اعظم درجة من الخطأ وأشنعه . فلدينا اطفالنا من اصحاب الملايين . ولدينا الى جانبهم معدمون اضنتهم حياة البؤس المتواصل وفت الشقاء في عضدهم . يموت شخص واحد من كل خمسة نزلاء دار شغل الفقراء (١) ومستشفى حكومي أو بيمارستان . اما في المدن امثال لندن فالنسبة تصعد الى واحد من كل اثنين ! وطبيعي ان التوزيع بلغ من الظلم المريع ما بات معه ضروريا ان يملى ويفرض فرضا بالعنف والقوة وبكل ما تتصور من بساطة فان اعترضت حوربت وقضي عليك . وان قاومت اشبعت ضربا وسجنت . وهذه العملية يطلق عليها العبارة

ما بينهم بحسب شروط معينة وبالنظر الى بضاعة واحدة او بضائع مختلفة سل فيما بينها اتصالا انتاجيا او استهلاكيا ــ لتحديد الانتاج وتوحيد الاسعار تحديد مناطق البيع ، واتخاذ التدابير لمحاربة شركات منتجة لنفس تلك لبضاعة ، لفرض الاحتكار والقضاء على المنافسة التجارية .

١ ــ بموجب (قانون الفقير) الملغى الآن في انكلترا ، كان يوضع العجزة وكبار السن والعاطلون في مؤسسات حكومية تدعى (دار الشغل) لضمان اسكانهم واطعامهم .

اللطيفة «اشاعة النظام والقانون» ! لا يمكن للتعاون ان يبلغ اكثر من هذا انتظاما . ففي زمننا هذا لم يعد واحد من العارفين بأرقام التوزيع الحقيقية يستطيع الدفاع عنها . وقد يتردد أشـــد المحافظين البريطانيين تعصبا في القول بأن مليكه لا بد وان يكون اشد فقرا بكثير من مستر روكفلر او ان يعلن النفوق الاخلاقــي لمهنة الدعارة على مهنة شغل الابرة ، لان الربح من المهنة الاولى اكثر من ربح المهنة الثانية . ان الحاجة الى عملية اعادة توزيــع جذرية للدخل في كل البلاد المتمدنة ، هي حاجـــة واضحة لا يماري فيها احد ومسلم بها عموما بقدر ما كانت وسائل الوقاية من الامراض وحفظ الصحة واضحة وضرورتها مسلم بها عموما .

أفي امكان الصانع ان يملك ؟

ما ان نأتي الى مسألة تحديد النسب التى يجب ان تبنى على اساسها قاعدة اعادة التوزيع حتى يبدأ الجدال . اننا لا نصدق آذاننا ويعترينا الذهول اذ نسمع من يقول بالفكرة السخيفة غير الواقعية ، وهي ان يعطى المرء مثلما يعطى احدهم جائزة حسن السلوك في (مدرسة الاحد) ، لا على اساس ما يكفي لسد خلّته واشباع بطنه . تلك الحماقة عقّدها راي آخر أقل سخافة وأكثر بعدا عن الواقع ، وهو انه يمكنك ان تخصص لكل شخص جانبا من الدخل القومي محددا بما ينتجه هو او تنتجه هي . ولقد يبدو في نظر الصبي الصغير ان الحداد هو الذي يصنع حدوة الحصان ولذلك يجب ان تكون الحدوة ملكا له . الا ان الحدّاد يعلم بأن الحدوة لا تعود له وحده ، بل لصاحب الملك ولجابي الضرائب ومحصل الاعشار والناس الذين ابتاع منهم الحديـــد والسندان والفحم . وهؤلاء لا يبقون له لقمة صغيرة من قيمتها . وهو يدري ان عليه ان يبادل هذه (اللقمة) مع القصّاب والخباز وبائع الثياب

بالاشياء التي تتطلبها انسجة جسمه الحية وما يغلفها من بشرة؛ او يدفع لكل من هؤلاء اكثر من قيمة الكلفة لان هؤلاء الصناع زملاءه مثله لديهم من وجب عليهم ان يسدوا مطالبه من اصحاب ملك وعملاء . فاذا اتضح بأن مثل هذه النماذج القروية البسيطة المباشرة للانتاج الفردي الظاهري ، هي في الواقع (بعد تأمل وفحص آني) من اسباب نظام اجتماعي معين ، فما الذي يقال عن مثل هذه المنتجات انكانت على شكل دارعات بحريةوإبر ودبابيس واقلام فولاذية تنتجها المصانع ؟ ان امسك الله دارعة بيد ، وقلما فولاذيا بيد وسأل ايوب عمن صنعهما ولمن يجب ان تعود ملكيتهما بموجب حق الصانع ، فلا بد ان ايوب سيحك راسه الماكر بكسرة من الفخار ولا ينطق بحرف ، الا اذا خطر له ان يقول بان الله هو الصانع الاول وان كل ما من حقنا ان نعمل بالمنتوج هو اطعام حملانه وخرافه منه .

اوقات العمل

لذلك فالبديل الذي اتخذه الصانع عن نصيحة يسوع لا يجديه فتيلا ، وليس ثم ما يمكن عمله من هذه الجهة ، الا ان تدفع للعامل بحسب الوقت الذي يستغرقه العمل . اي لكذا من الساعة او اليوم او الاسبوع او السنة . ولكن كم ؟ عندما يعن هذا السؤال للخاطر فالجواب الوحيد الذي تلقاه له هو : «بالاقل مما يضطره الجوع الى قبوله» وهذا ما يواجهنا بالنتائج المضحكة التي ألمعنا اليها آنفا ، فضلا عن الشذوذ الذي يتجلى في ذهاب النصيب الاوفر الى الذين لا يشتغلون مطلقا ، والنصيب الاقل لمن يقع عليه النصيب الاكبر من العمل . ففي انكلترا مثلا تدخل تسعة اعشار الثروة القومية جيوب عشر السكان .

الحلم الذي يقضي بالتوزيع بحسب الاستحقاق

وضد ما بينّاه آنفا ، يأتي احتجاج نظري (مدرسة الاحد) فتراهم يقولون : لماذا لا نوزع حسب الاستحقاق ؟ والمرء هنا يتخيّل يسوع بابتسامة عريضة عبر القرون المتعاقبة ، في حين كانت محاولة التهرب من تعاليمه تمنى بالنكبات والاخفاقات ، ابتسامة تتسع وتزداد عمقا لتصبح ضحكة تامة ! هناك مشروع اعظم بلاهة من مشروع تحديد الفضيلة بالمال . وفي هذا الموقف علينا ان نفترض ان (معهد الاقتصاد) في لندن وضع عددا من الاسئلة الامتحانية على النحو الآتي :

«اذا اعتبرنا القيمة النقدية لفضائل يسوع مائة ، ولفضائل يهوذا الاسخريوطي (١) صفرا ، فاعط النسبة الرقمية الصحيحة لفضائل كل من : ١ـ بيلاطس بونطيوس ، ٢ـ صاحب حظيرة الخنازير في بلاد الجدريين (٢) ، ٣ـ الارملة التي وضعت في صندوق الصدقة فلسا واحدا (٣) ، ٤ـ مستر هوريشيو بوغلي (٤) ، ٥ـ شكسبير ، ٦ـ مستر جاك جونسون (٥) ، ٧ـ السر اسحق نيوتن ، ٨ـ بالسترينا (٦) ، ٩ـ اوفنباخ (٧) ،

---

١ ــ احد الاثني عشر وهو الذي سلم يسوع الى معتقليه لقاء ثلاثين قطعة فضة .

٢ ــ جنوب شرقي بحيرة طبرية بالقرب من (عيون الحمة) .

٣ ــ مرقس : ف ١٢ .

٤ ــ صحفي انكليزي ورجل اعمال . سجن خمس سنوات بجريمة احتيال .

٥ ــ ملاكم اميركي ، بطل العالم في الوزن الثقيل من ١٩٠٨ حتى ١٩١٥ .

٦ ــ ملحن ايطالي .

٧ ــ مؤلف موسيقي فرنسي .

١٠ـ السر توماس لبتون (١) ، ١١ـ مستر بول سنكويفاللي(٢) ، ١٢ـ طبيب أسرتك ، ١٣ـ فلورنس نايتنغيل ، ١٤ـ السيدة سيدونز (٣) ، ١٥ـ خادمتك المياومة ، ١٦ـ رئيس اساقفية كانتربري ، ١٧ـ الجلاّد الرسمي» .

او ان تقوم بوضع السؤال التالي :

«المرحوم السيد بارني بارناتو (٤) حصل على دخل شرعي قدره ثلاثة آلاف ضعف مدخول فلاح انكليزي أجير عُرف بأخلاقه الحسنة عموما : عدد الفضائل الرئيسة التي يمتاز بها مستر بارناتو هذا ، على الفلاح الاجير بمقدار ثلاثة آلاف مرة . وبيّن بالارقام ، الخسارة التي لحقت بالحضارة عندما آل الامر بالسيد بارناتو الى اليأس ثم الى الانتحار ، بسبب نقص مدخوله بالثلث فقط ! » .

ان راي (مدرسة الاحد) المبني على قاعدة «لكل فرد الدخل الذي يستحقه» لهو أسخف بكثير من ان يكون جديرا بالمناقشة وقد نبذه هاملت نبذا ، قبل ثلاثمائة عام اذ قال «استعمل كل شخص حسب مؤهلاته ولن ترى احدا ينجو من المقرعة» (٥)

---

١ ـ تاجر بريطاني كسب ثروة طائلة باستحداث بيع الاطعمة الجاهزة .

٢ ـ مشعوذ وساحر عرف ببراعته الشديدة .

٣ ـ (١٧٥٥ ـ ١٨٣١) من اعظم الممثلات الانكليزيات .

٤ ـ (١٨٥٢ ـ ١٨٩٧) كان معدما لا يملك شروى نقير ، فاصبح صاحب ملايين من استغلاله مناجم الالماس في (كمبرلي) بجنوب افريقيا . انتحر بالقاء نفسه من سفينة كانت مبحرة به الى افريقيا .

٥ ـ دونك النص من مسرحية هاملت (فصل ٢ ، مشهد ١) :

Use every man after his desert, and who Should' scape whipping ?

ان يسوع ليبقى صامدا كأي رجل واقعي عملي ، ونحن ! نقف هدفا مكشوفا كالحمقى والرعناء ، والواهمين غير البعيدين كثيرا عن الواقعية . في اللحظة التي تحاول ان تحوّل فكرة (مدرسة الاحد) الى ارقام تجد انها ستبلغ بك الى مشروع عقيم هو «الدفع على اساس الوقت» وسنقرأ في ورقة اختبارك : ان وقت يسوع لا يسوى شيئا (كان يشكو من عدم وجود موضع يسند اليه رأسه في حين كانت للثعالب اوجرنها وللطيور اعشاشها) (١) فلنقل ان وقت الدكتور كريسن (٢) يسوى ثلاثمائة وخمسين باونا سنويا (٣) انتقد هذه الصيغة . وان شككت في عدالتها فبيّن بالباونات والدولارات والفرنكات والماركات ، كم يجب ان تبلغ أجورها الزمنية النسبية . قد نكون اجابتك كالآتي : ان المسألة في منتهى قلة الذوق ، وانك تستنكف عن الجواب . غير انك لا تقوى على الاعتراض اذا سئلت كم دقيقة من وقت مجلد كتب تسوى ساعتان من وقت فلكي ؟

التوزيع الحيوي

انك بالاخير مرغم على طرح السؤال الذي كان يجدر بك طرحه

---

١ – متى : ف ٨ .

٢ – طبيب انكليزي نفذ فيه حكم الموت شنقا بتهمة قتله امرأته السليطة اللسان .

٣ – لا شك ان شو لم يكن ينتخب امثلته من هذه الاسماء بصورة اعتباطية وانما كان له غرضه الخاص ويتضح ذلك من الدائرة الواسعة التي تضم هؤلاء الاشخاص المختلفي المشارب والاحوال والجنسيات والازمان ولذلك حاولنا جهدنا في ان نقدم للقارىء العربي تعريفا بكل شخص ليتبين رأي المؤلف وهدفه .

من البداية وهو «لاي سبب تعطي المرء.دخلا ؟» من الواضح انك تعطيه دخلا لتبقيه حيا . ولما كان جليا بأن الشرط الاول الذي يجب ان يتوفر ليبقى حيا غير مستعبد من شخص آخر ، هو ان يقوم بانتاج ما يعادل تكاليف بقائه حيا . ولذلك كان لنا ملء الحق في ارغامه على الامتناع عن البطالة ولنا ان نستعمل اية وسيلة نرتأيها لنرغمه على الامتناع عن القتل والحرق والتزوير او ايـــة جريمة أخرى . ان اسخف ما يمكن عمله معه هو ان لا نعمل ! اعني ان نكون في تعاملنا معه عاطلين مكسالين غلاظا بقدر ما يكون هو في تعامله معنا . حتى لو ضمنا له عملا بدلا من بنائنا كـــل النظام الصناعي على موجات متعاقبة من العمل المتنافس المنهك بما يعقبها من مستنقعات بطالة كما نحن عليه الآن فعلينا ان ننكر عليه انكارا باتا البديل لعدم قيامه بالعمل . لان ذلك سيؤدي به وبأولاده (ان كان معيلا) الى الفقر . ان الفقراء هم سرطان ينخر جسم الثروة العامة ويكلفون اكثر بكثير مما لو أعطـــوا رواتب قاعدية كبيرة باعتبارهم فئة ساقطة لا يرجى لها صلاح . كـــان يسوع اكثر ادراكا من ان يقترح شيئا من هذا القبيل . فقد قال تلاميذه : اتعملون لاجل المحبة فــــي حين تدعون الآخريـــن يستضيفونكم ويطعمونكم ويكسونكم محبـــة بكم او مجانا بدون مقابل» كما نعبّر عنها في ايامنا هذه . ان كل التجارب البشرية وكل مطمح انساني طبيعي فما لم يعد مصطبغا بعد بصبغــــة التجارة ، يشير الى ان هذا ، هو الطريق السوي قال اليونانيون: «إضمن اولا دخلا مستقلا ، ثم مارس الفضيلة» وكلنا يكافح للفوز بدخل مستقل ، وكلنا يعلم بما علم يسوع وهو لو كان علينا ان نهتم بما سنأكل او ما سنشرب غدا فيغدو من المحال ان نفكر في اشياء اسمى من ذينك الشيئين . اي ان نعيش عيشة اعلى من حيوان الخلد الذي كانت حياته من بدئها حتى خاتمتها ، بحثا مستمرا مجنونا عن الطعام . والى ان يتم تنظيم المجتمع بشكل

يغدو معه الخوف من افتقاد حاجات الجسد نسيا منسيا كالخوف من الذئاب الذي ساد العواصم المتمدنة ـ فلن نحظى بحياة اجتماعية كريمة قط . وفي الواقع ان محاسن تسويتنا هذه كلها تكمن في انها تنقذ حفنة منا من هذا الخوف . ولكن لما كان الخلاص من الخوف يطبق شر تطبيق وأسخفه ، حتى انه يجعل حفنة من المفضلين طفيليين على الآخرين فهم مبتلون بالتفسخ ، ويبدو ان التفسخ هو العقوبة البايولوجية المحتومةالتامة للطفيليين. انهم يشيعون الفساد في الثقافة العامة وفي سياسة الدولة بدل مساهمتهم المجدية فيهما . وان بطالتهم المفرطة لهي مضرة بمقدار ما كان كدح الكادحين المفرط مضرا . وعلى كلّ فالحكمة المستخلصة من هذا واضحة : ان مشكلتي المجتمع المنظم الاساسيتين هما : كيف تنتج في المجتمع حاجات تكفي كل اعضائه . وكيف نقطع دابر سرقة العاطلين هذه الحاجات ، أولئك العاطلون الذين يجب عزلهم عزلا تاما ودقيقا ذلك لان حل المشكلة الاولى الظافر الذي حققه مخترعونا وكيميائيونا واكبه اخفاق حكامنا الذريع في حل المشكلة الثانية . ان التفاؤل في هذه المسألة بالذات ليس الا تعاميا عن الحقيقة . فأمامنا جميعا حقيقة الفشل الثابتة تقفمائلة والناس الوحيدون الذين يتشبثون بالوهم الكسول (وهو امكان ايجاد طريقة توزيع عادلة تعمل من تلقاء نفسها) هم أولئك الذين يفرضون تغييرا ثوري الطابع ، كتأميم الاراضي الذي يزيد بحد ذاته في ضخامة مشكلة كيفية توزيع نتاج الارض على افراد المجتمع كما هو واضح .

التوزيع العادل

عندما تواجه المشكلة بالاخير ، تجد ان ليس لمسألة نسبة توزيع الدخل القومي الا جواب واحد وهو : يجب ان تكون

حصصنا كلها متساوية . فلقد كانت دائما كذلك وستبقى كذلك . صحيح ان دخل اللصوص يتفاوت تفاوتا كبيرا بين لص ولص . كما ينعكس التفاوت ايضا في مداخيل طفيلييهم . ونزول عبقريات لامعة معينة الى ميدان التجارة ، اعطى مداخيل مباشرة استثنائية يشوبها الاستغلال . فالاشخاص الذين يعيشون على بدلات ايجار الارض ورأس المال ، هم اقتصاديا من صنف أولئك اللصوص ذوي المداخيل المتفاوتة تفاوتا غريبا . على ان تفاوت الدخل من فرد الى فرد في الكتلة البشرية الهائلة ، هو غير معروف لانه ليس عمليا بشكل يرثى له ! وكتدبير مجدٍ لاقناع نجار ما بأن القاضي الفلاني هو مخلوق جُبل من طينته بحيث كان له الحق في فرض ٢
عقوبة عليه ، يجب أن نعطي النجار مائة باون سنويا والقاضي خمسة آلاف باون سنويا . ولأن الاجرة التي تدفع لنجار ما هي اجرة كل النجارين عادة ، فان راتب هذا القاضي هو راتب كل القضاة عادة .

طان وخادم السفينة

اذن فلم يعد هناك موضوع للبحث ، أو بالاحرى لم يكن ثم موضوع ، الا الاختلاف بين دخول الطبقات . لقد سبق فكان ثم مساواة اقتصادية فيما بين قباطنة السفن ، ومساواة اقتصادية فيما بين خدم السفن . فما قول يسوع في هذا ؟ لعله سيقول : «اذا كان اعتراضك الوحيد ، ان هدف انتاج القبطان وخادم السفينة هو نقل شخصك من ليفربول الى نيويورك او بذل الجهد لابحار اسطول ، او نقل البارود من عنبر السفينة الى موضع المدفع فعندئذ يجب عليك ان لا تدفع اكثر من شلن واحد لخادم السفينة لقاء كل باون واحد تدفعه للقبطان الذي كلفت خبراته وتجاربه نفقات اكثر . ولكن لو رغبت زيادة على هذا ، في ان

تفسح للنفسين البشريتين مجالا لتطوير كل قابليتيهما ، النفسان اللتان لا يمكننا فصلهما عن القبطان وخادم السفينة (وهما اصل التفرقة فيما بينهما وبين رفاص الماكنة) لنطوير كل ما فيهما من قابلية ، فعندئذ ستجد ان خادم السفينة يكلف اكثر مما يكلف القبطان لان شغل الاول منهما ليس للنفس قدر ما هو شغل القبطان . ومن ثم ينبغي لك ان تعطيه بقدر ما تعطى القبطان الا اذا تعمدت ان يكون مخلوقا أدنى منزلة» وفي هذه الحالة كان الاسراع بشنقك أفضل ! بوصفك من محبذي مبدأ الاجهاض ، وهذا هو موضوع الجدال الرئيس .

الاعتراضات السياسية والبايولوجية على عدم المساواة

على ان هناك اسبابا أخرى للاعتراض على الترتيب الطبقي للدخل اخذت تتراكم شيئا فوق شيء منذ عهد يسوع . هذا الترتيب نراه في السياسة يهزم كل شكل من أشكال الحكم الا نظام حكم الاقلية الفاسد بحكم الواقع . الديمقراطية في اعلى الجمهوريات الحديثة درجة كديمقراطية فرنسا والولايات المتحدة مثلا ، هي وهم" وتدجيل . انها تجعل من العدالة والقانون مهزلة. القانون يصبح فهو مجرد أداه لابقاء الفقراء في حالة انقياد واذعان. والمتهمون من العمال يحاكمون لا امام هيئة محلفين تختار من بين زعمائهم وقادتهم بل عن طريق تآمر مستغليهم عليهم . والصحافة هي صحافة الاغنياء ولعنة الفقراء . ومن الخطورة بمكان ان تعلّم الناس القراءة . والقسيس يغدو مجرد تكملة للشرطي في آلة حكم يقوم فيها القصر الريفي باضطهاد بيوت القرية . والانكى من هذا كله ان الزواج ينقلب الى مظهر من المظاهر الطبقية والتنوع اللامحدود في الاختيار الذي تقدمه الطبيعة للشبان أثناء بحثهم عن شريك حياة ضاقت حدوده حتى انحصرت في قبضة يد من

الاشخاص ذوي دخول متشابهة ، والجمال والصحة لا يعودان الا من قبيل احلام الفنانين فحسب واعلانات دجل وشعوذة بدلا من ان تكون من شروط الحياة السوية . المجتمع لم يعد منقسما على نفسه وحسب بل اصبح خرابا ودمارا في كل ناحية من نواحيه بعامل التفاوت وعدم المساواة في الدخل بين الطبقات . ومـا الاستقرار الذي يجده الآن الا بفضل الكتل الضخمة من الناس التي تقف بين أولئك الذين تساوى دخولهم .

يسوع الاقتصادي

ولذلك يبدو ان ما يجب علينا ان نستبدىء به هو الـرأي القائل بأن حق الكائن البشري في مدخول ، هو حق مقدس ، حق يتساوى فيه الجميع ، كابتدائنا بالقول ان حق الحياة هو حـق مقدس متساو. في الواقع ان الحق الاول هو اعادة تثبيت للحق الثاني انه لمن الجنون ان تسلمني لحبل المتسنقة ، لاني قطعت رقبة عامل ميناء بعد ان تشتط وتقسو في معاقبتي لاني تركته يجوع لم ادعه يقوم بتفريغ سفينة اتفق اني كنت مالكا لها . اذ لمّا كان الضرر الذي يحدثه قطع رقبته اقل بكثير من ضرر بقائه جائعا ، فان المجتمع ذا الادراك الناضج سيحترم قاطع الرقاب ويجله اكثر من احترامه الرأسمالي . ان الامر بات على درجة كبيرة مـن الوضوح وفاق الشر حد الاحتمال بحيث ان محاولتنا صعـود مراقي المدنية ان لم يقض عليها كما قضي على المحاولات السابقة فعلينا تنظيم مجتمعنا بشكل يكون معه قادرا على القول لكل امرىء في البلاد : «اطمئن وانعم بالا ولا يشغلك سؤال ماذا ستأكل ؟ او اي شيء ستشرب او من اين ستأتي بالكساء » وعندئذ لن يكون لدينا ذلك الجنس من الرجال الذين يضعون قلوبهم في جيوبهم وفي خزائن اموالهم ويودعونها لدى صرّافين مثلما قال يسوع :

«حيثما يكون كنزك هناك يكون قلبك» ولهذا أوصى بأن لا نجعل النقود كنوزا وأوجب علينا ان نتخذ الخطوات اللازمة لنعـــوّد انفسنا على عدم الاكتراث بها مطلقا . وان نحرر قلوبنا ونعدّها لغايات اسمى من جمع المال . وبعبارة اخرى ان نكون جميعا كرماء الخلق شرفاء نهتم برعاية بلادنا ، لان بلادنا ترعانا بدلا من ان نبقي على اولئك السفلة المتاجرين الذين يقدمـــون على كل شيء وأي شيء في سبيل المال، او ان نبيع انفسنا وأجسامنا بالباون والانش بعد تبديدنا نصف يوم ونحن نساوم على السعر . يجب عليك حتى (سواء اعتبرت يسوع إلها ام بشرا) ان تقر بأنه كان اقتصاديـــا وسياسيا من الطراز الاول .

يسوع البايولوجي

وكان ايضا كما سنرى – بايولوجيا من الطراز الاول . لقد اقتضى قرن ونصف قرن من الزمان ليقنعنا الوعاظ التطوريون ابتداء من بوفوّن وغوتيه حتى بطلر وبرجسون بأننا وأبانا واحد. وانه لما كان ملكوت الله فينا ، فلا حاجة بنا الى السعي بحثا عنه والهتاف «ها هو هنا !» ، «ها هو هناك !» وأن (الله) ليس صورة شخص متعال في رداء ابيض كما توضح لنا صورته فـــي كتاب توراة الاسرة . وانما هو روح ، يتقدم من خلالها نحو فيض متزايد من فيوض الحياة . ونحن المصابيح التي يشع منها ضياء الدنيا واننا بمختصر القول آلهة وان كنا نموت كالبشر . وكل هذا هو الآن صحيح لا شائبة فيه بايولوجيا وسايكولوجيـــا . وان مجهودات اصحاب مذهب الانتخاب الطبيعي National Selectionists أمثال فايسمان لجعل سنّة النشوء والارتقاء مجرد عمل تلقائي ، لم تمس مبدأ يسوع بضرر ، وانه كانت قد اودت باللاهوتيين الذين ادركوا (الله) بوصفه قطبي مغناطيس يجمع اليه البشر والملائكة كما

يجمع اللورد روتشيلد انواع الجاموس والنعام الاسترالي في «ترنك» .

المال هو القابلة المولدة للشيوعية العلمية

قد يسأل احد القراء البسطاء هنا ، لماذا لا نلجأ الى الشيوعية كما اشار به علينا الرسل ؟ ان ذلك قد يكون تدبيرا عمليا ممتازا في قرية الانتاج فيها قاصر على حاجات بسيطة بدائية تعرضها الطبيعة على كل البشر بحد سواء . نحن نعلم ان الناس بحاجة الى خبز واحذية وانهم لا يستطيعون انتظارا لها ، فهم ينشدونها ويدفعون اثمانها . لكن عندما تتقدم المدنية الى الحد الذي تبدأ تنتج سلعا لا يرى المرء نفسه في حاجة ماسة اليها ، وقد لا تكون موضع رغبة او هدف استعمال الا لطائفة معينة من الناس ، فمن الضروري أن يكون الافراد قادرين على شراء اشياء صنعت بناء طلبهم بثمن التكليف . ان تأمين الخبز للجميع عمل سليم لا عليه لان الجميع يريدون الخبز والجميع يأكلونه . لكن من جة والسخف ان يؤمن للجميع ميكروسكوبات وابواق ، ليفة وصوالجة البولو وانابيب اختبار . لان تسعة اعشار المنتجة ستظل بضاعة بائرة كاسدة لان تسعة اعشار السكان يحتاجون الى هذه الاشياء سيحتجون على تزويدهم بها ا مطلقا . ان لدينا آلة ثمينة لا يستغنى عنها تسمى د» وهي وسيلة تمكن كل فرد من الايصاء بعمل اشياء سه يرغب فيها ويدفع ثمنها خلافا للاشياء التي لا مناص ستهلاكها ان اراد البقاء حيا . وبالاضافة الى الاشياء التي لة على ان يمتلكها ويستعملها شاء ذلك ام أبى ، كالثياب ، الوقائية الصحية والجيوش والاساطيل في المجتمعات حيث تتعادل أغرب الطلبات لصنع المواد حتى يمكن التكهن د التي يصل اليها استهلاكها الى اقل درجة من الخطأ .

وبعد قليل من الممارسة ينظر الى الاشتراكية المباشرة (خذ ما تريد دون ان تدفع) كما ينظر اليها شخصيات كتاب «انباء لم ترد من اي مكان» (١) لوليام موريس، لا باعتبارها سهلة التطبيق وحسب، بل اقتصادية للغاية ، والى الحد الذي يُعتبر اليوم من رابع المستحيلات . ان الرياضيين والعازفين والاطباء والبايولوجيين سيحصلون اذ ذاك على الادوات التي يحتاجونها بالسهولة التي يحصلون بها على خبزهم . او كما هو الحال في الوقت الحاضر. ستعبَّد طرقهم ونضاء شوارعهم وجسورهم بالنور ، ولن يعترض الاصم عندئذ لمساهمته في الانفاق على صنع (السرنايات) (٢) العامةعندما لا يصر العازف على عدم المساهمة في الانفاق على (سمّاعات الصم) . هناك قضايا معينة (كالراديوم) ينخفض عليها الطلب الى مجرد عدد محدود من رجال المختبرات ، فيكون من الضروري ان تساهم حاليا وعلى اية حال ، المجتمعات كافة بها، لان الثمن يفوق طاقة اي فرد عامل . لكن حتى عندما يفسح اقصى المجالات لتوسيع نطاق الشيوعية (مما يبدو اليوم فهو حديث خرافة) (٣). فستبقى دائما ولفترة طويلة من الزمن الآتي ، نواحٍ من العرض والطلب فيها يحتاج الناس الى استعمال النقود او الى الضمان الشخصي ولاجل ذلك يجب ان تكون لديهم دخول شخصية . ان السفر الى بلد اجنبي هو مثال واضح لذلك . ونحن ما نزال بعيدين جدا حتى عن الشيوعية القومية (٤) . وربما ترتب علينا

---

١ ــ هو الاسم الذي اخترعه المؤلف لبلاد خيالية ، مثالية ادى تطبيق النظام الاشتراكي فيها الى نشر السلام والسعادة بين سكانها .

٢ ــ السرناي هي آلة موسيقية نفخية من قبيل الناي والمزمار .

٣ ــ بعد سنتين من هذا القول انفجرت ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا.

٤ ــ نطاق (الشيوعية القومية) قاصر على أمة او شعب لا اكثر ، وهي اضيق

ان نحقق تقدما كبيرا في (الشيوعية المحلية) ، كأن يصبح في وسع رجل من مانشستر السفر الى لندن والبقاء يوما واحدا دون أن يأخذ معه اي مبلغ من المال . ان الشكل العملي الحديث لاشتراكية يسوع هو الآن والحالة هذه ، التوزيع المتساوي لفائض الدخل القومي الذي لا تمتصه الشيوعية البسيطة البدائية .

لا تدين !

عند التصدي الى الجريمة والاسرة نجد الفكرة السائدة والتجارب الحديثة لم تلق ضوء جديدا على آراء يسوع . وعندما سنحت لسويفت (١) فرصة تصوير فساد مدنيتنا بتنظيم قائمة بتصنيف انواع السفلة والاوغاد التي تنتجها تلك المدنية ، فانك تراه دوما يعطي (القضاة) موضعا متمايزا عن أولئك الذين يحاكمون امامهم . وفي احدى حكايات مستر غلبرت جسترتون (٢) تجد البطل قاضيا ينظر في دعوى جنائية ، فيبلغ به شعوره بسخافة ركزه ، وبمدى الشر الكامن في الامور التي تدفعه تلك السخافة ى عملها ، الحد الذي جعله ينزع طيلسان القضاء فورا ، الخروج الى الدنيا ليحيا حياة انسان شريف بدلا من حياة صنم نظ غليظ القلب . كان ثم ايضا دعوة تتسم بالغباء المجرد عن

طبعا من (الشيوعية الاممية) اما (الشيوعية المحلية) فهو يقصد فيها شيوعية المدينة او القرية او اي مجتمع ضمن الشعب او الامة .

١ - (١٦٦٧ - ١٧٤٥) ناقد انكليزي وقصصي اشتهر بكتابه «رحلات غوليفر» وهي حكايات انتقادية سياسية رمزية .

٢ - المقصود قصة « مغامرات الميجر براون الهائلة » التي ألفها Gilbert Keith Chesterton (١٨٧٤ - ١٩٣٦) .

الروح عرفت باسم المذهب الجبري تمثل الانسان كائنا ميتا يؤرجحه ذات اليمين وذات الشمال محيطه وظروفه وسابق احداثه وما الى ذلك مما يذكرنا بأن هناك حدا معينا لعدد «الاطوال» التي يستطيع الانسان اضافتها الى كيانه الجسدي او الروحي . وانه لمن الغباء بل من القسوة ان تعذب انسانا طوله خمس اقدام لعجزه عن قطف ثمرة من شجرة هي ضمن امكانية اناس متوسطي القامة . ولقد عرفت شخصيا قضية تتعلق بطفلة مسكينة عوقبت بالضرب لانها عجزت عن قراءة عقربي الساعة بعد ان شرح لها عمل ارقام الساعة ودورانها شرحا مفصلا ثم تبيّن ان العلة في عجزها عن ذلك ، هي اصابتها بقصر البصر ، فتعذر عليها قراءة الارقام . هذه الصورة هي صورة مطابقة للسخف والمظالم التي يقودنا اليها مبدأ الارادة الحرة التي هي الصنو الغبي لمبدأ الارادة المسيّرة . وأما الفكرة القائلة بأن الانسان يمكن ان يكون صالحا وان عليك ان تزوده بحافز اضافي قوي للصلاح ، بأن تعذبه عندما يقدم على عمل سيىء فانها سرعان ما ستنقلب الى سخافة انلم يحصر تطبيقها بالحدود التي وضعتها الطبيعةللضبط النفسي بالنسبة الى معظمنا . ليس هناك من بامكانه أن يفترض ارغام رجل يكره الموسيقى او كان خلواً من المؤهلات الرياضية ــ على ضغط كل الحان سمفونيات بيتهوفن او ان يحفظ (تكملة) مؤلف نيوتن عن التفاضل والتكامل تحت تهديده بعقوبة الموت !

حدود الارادة الحرة

وبناء على ذلك فمن قوانيننا (وهي ليست مجرد ادوات اضطهاد وانما تهدف الى المحافظة على كيانات المستبدين بحجة سيادة القانون) ما يمكن اطاعته عن طريق استعمال درجة اعتيادية جدا من قوة التعقل وضبط النفس . فمعظم النساء والرجال

يستطيع احتمال التبرّم الاعتيادي بالحياة ، والخيبة منها دون ان يرتكبوا اعتداءات قتّالة . ولذلك هم يستخلصون مبدأ وهو ان اي شخص يستطيع ان يصد نفسه عن ارتكاب مثل هذه الاعتداءات ان شاءت او شاء ذلك ، ثم باشرت او باشر بتعزيز ضبط النفس بالتهديد وبالعقاب الصارم . الا انهم فيهذا يركبون متن الشطط . هناك فريق من البشر يملك قوى فكرية وجسدية عظيمة . الا انهم يعجزون عن كبح جماح هياجهم الذي تثيره نكبة بسيطة ، عجز يفوق عجز كلب عن تمالك نفسه من الوثوب اذا قُرص قرصة موجعة مفاجئة . انك ترى الناس وهم ثائرون يرمي بعضهم بعضا بالسكاكين وشموع الكافور لنزاع نشب فيما بينهم على مائدة عشاء . وتجد رجالا صدر بحقهم عدد من أحكام السجن بالاشغال الشاقة بسبب مشاجرات قتالة ، لا يترددون في يوم اطلاق سراحهم ، من الامساك بزوجاتهم وقذفهن تحت عجلات النقل لكلمة تفوهن بها ازعجتهم . وليس عندنا فحسب أناس يعجزون عن مقاومة فرصة سرقة تعنّ لهم اشباعا لحاجاتهم ، بل لدينا ايضا اناس فيهم جنون السرقة (كلبتومانيا) يسرقون دون ان تدفعهم حاجة الى الاشياء التي يسرقونها . ان اللصوصية تجتذب بعض الناس كما تجتذب الملاحة بعض الصبيان . فكم بين الناس المحترمين يقوى تحذير اطبائهم والدروس الماضية على ردعهم وكفهم عن اكل وشرب اكثر مما يصلح لهم؟ صحيح انه يوجد بين القادرين على ضبط النفس والذين لا يردعهم رادع، وَسَط ضيّق من المتمارضين خلقيا يمكن ان يرتدعوا ويرجعوا عن غيّهم بالخوف من العواقب . ولكن من العبث وعدم الجدوى الابقاء على نظام بغيض يقضي بإساءة معاملة المجرمين ، اساءة حاقدة عمدية مذلة كثيرة التكاليف في سبيل هذه القضايا الهامشية ليس غير ! ان مبدأ الجبر او الارادة المسيّرة هو مبدأ صالح التطبيق الى درجة كبيرة في مجال المعالجة العملية . والناس الذين لا يملكون

من ضبط النفس ما يكفيهم للاغراض الاجتماعية قد تفصف حياتهم قصفا ، او يؤدي الامر بهم الى مستشفى الامراض العقلية بعد دراسة حالتهم والتأكد من امكان شفائهم . اما تعذيبهم ثم الفخر بالفضيلة على حسابهم فهذه هي البربرية والسخافة بعينها . وكل رغبة فى ممارستها هو قسوة وحقد أعمى . ومع ان القسوة والحقد الاعمى هما من الطبائع البشرية على الاقل ــ عندما يعلنان للملأ ويمارسان على رؤوس الاشهاد . الا انهما يبدوان في غاية القبح والفظاظة عندما يتسربلان برداء العدالة . وهذا ما حدا على اغلب ظني ، بإيزابللا شاكسبير (١) الى تأنيب القاضي انجلو . وهو نفسه ما حدا بسويفت ايضا الى ان يخصص للقضاة اشد زوايا جهنم حرارة ونارا . وهذا الذي حدا بيسوع طبعا الى القول (لا تدينوا لئلا تدانوا) وقوله ايضا «من سمع كلامي ولم يؤمن به فلست انا الذي أدينه . لان هناك من يدينه» وأعني به الآب الذي هو معه واحد .

عندما يسلب منا شيء نحن بصورة عامة نعود الى قانون الجزاء من غير ان نفكر بأنه لو كان قانون الجزاء هذا فعالا لما سلبنا . وهذا ما يدفعنا ويديننا بروح الانتقام .

لست بحاجة الى التفصيل في هذه المناظرة اكثر مما فعلت الآن لاني عالجت الموضوع معالجة وافية في محل آخر . على اني اريد الاشارة الى اننا بقينا منذ اشار علينا يسوع بأن لا نحاكِم ولا نعاقب ، مستمرين في المحاكمات وفرض العقوبات . واني لانحدى

---

١ ــ بطلة مسرحية (العين بالعين والسن بالسن) Measure for Measure وهو يشير الى مشهد في المسرحية تقوم ايزابللا وهي متنكرة برداء المحامي بالدفاع عن اخيها الذي وقع تحت طائلة غضب انجلو القاضي المتزمت ظاهرا والعاشق باطنا . وكان على وشك ان يفرض عليه عقوبة الموت .

ايا كان باقامة حجة تقنعني بأن اسر العالم قد يكون أفضل ممـــا سيكون عليه وهو خال من القاضي والسجن وساحات الاعدام على طول الخط . اننا بعبارة بسيطة اضفنا الى بؤس الجريمة بؤس العقوبة وزدنا على قسوة المجرم قسوة الحاكم . لقد تناولنـــا الرجل الشرير وجعلناه اكثر شرا بتعذيبه وتحقيره وجعلنا انفسنا في الوقت ذاته بشرا أسوأ منه . الامر يبدو وليس فيه شيء من المنطق اليس كذلك ؟ انه لأهون كثيرا قتل المجرم بألطف ما يمكن تنفيذ عملية القتل ، او وسمه بميسم ثم تركه لضميره، او معاملته معاملة المريض او من خولط في عقله كما تعامل انت الآن (لم يتم — والشيء بالشيء يذكر — تحرير المجنون من السلاسل والقيود الا في السنوات الاخيرة) هذا على ما أراه — الشكل الذي يمكن به وضع تعاليم يسوع موضع التطبيق .

الفصل الثامن

يسوع في الزواج والاسرة

عندما نأتي الى الزواج والاسرة نجد يسـوع يعترض نفس الاعتراض على المبدأ القائل ان ملكية الفرد للمخلوقات البشرية هي الاصل في الزوجية كما هي الاصل في حيازة الفـرد للثروة . يقول أن الرجل المتزوج يحاول اسعاد امرأته . والمرأة المتزوجة تحاول اسعاد بعلها بدلا من ان يقوما (بعمل الله) . وهذه نسخة ثانية من «حيثما يكون كنزك هناك يكون قلبك» . بعد مرور ثمانية عشر قرنا نجد شخصا آخر يختلف عن يسوع اختلافا بيّنا هو تاليران (١) يدعو الدعوة نفسها حيث يقـول : «المتزوج صاحب

١ ـ Charles Maurice Talleyrond (١٧٥٤ ـ ١٨٣٨) سياسي فرنسي خدم في عهد الجمهورية وعهد نابليون والبوربون .

الاسرة ، يقدم على كل شيء في سبيل المال». ومع ان هذا القول ليس دقيقا من الناحية العلمية الا ان فيه من الصحة ما يكفي ليكون اعتراضا اخلاقيا على الزواج . فما دام للرجل الحق في المخاطرة بحياته او بمدار رزقه في سبيل مثله وأهدافه ، فهو لا يحتاج الى اكثر من الشجاعة والعقيدة ليجعل صحة القول هذه مما لا مجال للطعن فيها . الا انه يقضي على حقه هذا عندما يتزوج . لقد احتاج الامر الى ثورة لانقاذ فاغنر (١) من موعد الحضور الى مجلس القضاء في درسدن ولم تصفح زوجه عنه قط لاظهار السرور والشعور بالحرية عندما أخطأ ذلك الموعد فقذف بها الى احضان الفقر . وربما كان ميلليه (٢) سيبقى مستمرا في رسم صور العاريات المثيرة الى آخر ساعة من حياته لو لم تكن زوجه من ذوي الاتجاهات البطولية هي نفسها . ان النساء يخضعن للاستعباد ويستسلمن للقهر في سبيل اولادهن وأبويهن . وتلك حالة لا تقوى اية امرأة متحررة من هذه الروابط على تحملها .

تلك هي البداية والنهاية لاعتراض يسوع على روابط الزيجة والاسرة . وهذا هو التفسير المعقول عن خلو السماء من الزواج والمتزوجين ، وليس لدينا سبب للافتراض بأنه لم يكن يعني قوله هذا . انه لم يقترح العزوبة قاعدة اساسية في الحياة فهو ليس بهذا الغباء . ولا كان يعتقد ــ كما اعتقد بولس ان نهاية الحياة وشيكة لذلك فلا حاجة تدعو الى تكاثر البشر ، ولا بد انه كان

---

١ ــ ما يشير اليه شو هو حادثة معينة وقعت لهذا الموسيقار العظيم بخصوص دعوى مالية خسرها .

٢ ــ Millet (١٨١٤ ــ ١٨٧٥) رسام فرنسي اشتهر برسمه الفلاحين والحقول .

يقصد وجوب استمرار الجنس البشري بدون ان يتقسم الولاء الذي يدين به البشر لله الذي هو مع الرجال والنساء معا في ذات نفسه . وهذا يثير المشكلة العملية : كيف تضمن الحرية الروحانية ومكانة القس والراهبة .

ان لوثر القس لم يحل المشكلة بزواجه من راهبة ، بل أدلى عمله هذا فحسب بشهادة عملية مقنعة للغاية هي ان العزوبة اعظم خيبة واخفاقا من الزواج .

لماذا بقي يسوع عازبا ولم يتزوج ؟

المظاهر كلها تشير الى ان المشكلة لا تضايق الا أناسا مستثنين. ان النساء الاعتياديات تماما المتزوجات برجال اعتياديين تماما يجب ان لا يشعروا بأي تقيّد : فالقيد ليس قاصرا على تركهم احرارا يفعلون ما شاؤا بل ان القيد نفسه هو الذي يسهّل عليهم كثيرا استحداثه لانفسهم . فعندهم ان هجوما على الزواج ليس ضربة توجه في سبيل الدفاع عن حريتهم بل ضربة تنزل بحقوقهم وامتيازاتهم . وقد يتوقع المرء انهم لن يقفوا عند الشك الحماسي في تعاليم يسوع هنا بل يتمادون الى الاعتراض الشديد حول بقائه عازبا وعزوفه عن الزواج هو بالذات . حتى أولئك الذين يعتبرونه إلها نزل عن عرشه السماوي متقمصا جسم بشر لفترة من الزمن ارى من حقهم القول ان بشريته بقيت غير كاملة في اهم نقطة وهي بقاؤه عازبا . الا ان الحقائق هي على طرفي نقيض من هذا . فمجرد التفكير بيسوع المتزوج ، يعتبر لدى معظم المؤمنين الاعتياديين من قبيل الكفر والتجديف حتى عند الذين لا يرون يسوع شخصية فائقة للطبيعة وانما هو نبي فحسب مثلما كان محمد نبيا . فهؤلاء يشعرون ان هناك شيئا اكثر مهابة وجلالا في عزوبة يسوع من منظر محمد وهو مستلق على ارض داره ساهما،

بينما اجتمعت نساؤه حوله يتعاركن ويتنافسن على استحواذه . اننا لا نعجب عندما دعا يسوع ابنَي زبدى ليلتحقا به دون ان يدعو معهما اباهما ، ولا نعجب اذ نجد التلاميذ كلهم كيسوع قد تخلصوا من مشاكل الاسرة . والامر ينضح من نفاد صبره عندما كان الناس يعتذرون عن الانضمام اليه بسبب مجالس عزاء اقربائهم او عندما يفترضون بأن اول الواجبات هو واجبه تجاه أمه فواضح انه وجد قيود الاسرة والتعلق بالاهل مما يعترض سبيله في كل منعطف حتى اصبح مقتنعا بالاخير الا احد من البشر يستطيع ان يتبع نوره الداخلي الا بعد ان يتحرر من تلك الالتزامات . ان انتفاء اي احتجاج ضد هذا يميل بنا الى القول ان ليس هناك اناس عاديون في قضية الزواج وان كل واحد هو في اعماق قلبه مسيحي صادق من الناحية الجنسية .

عدم ثبات الغريزة الجنسية

الا ان المشكلة كذلك ليست من السهولة بمكان . فغريزة الجنس هي غريزة في منتهى الدهاء او التعقيد وان معشر ابناء البشر لا يعرفون حرية الضمير ، ولا يهتمون كثيرا به وهو ما كان يسوع يفكر فيه . ويكاد يكون اهتمامهم البالغ حد الهوس ، مقصورا على الجنس وهو الذي لم يقل عنه يسوع شيئا . وفي طبائعنا الجنسية يتجاذبنا الميل الذي لا يقاوم الى جانب القرف الطاغي والاشمئزاز . ان لدينا عاطفتين جديدتين مستبدتين : العفة والغلمة . واننا لنغدو مجانين في ركضنا وراء الجنس ، كما نغدو مجانين ايضا عند اضطهادنا الجنس ! ان لم نشبع رغائبنا ونقضي لباناتنا فالجنس ضائع . وان لم نكبح جماح هذه الرغبات فنحن ندمر انفسنا . وهكذا أدى الامر بنا الى استنباط شرائع الزواج التي تكفل في الوقت نفسه فرصا لاشباع الجنس

ووضع ما لا يحصى من العقبات امامه . واختراع ما يضعه في مصاف الرذيلة . ما يحلله وما يحرّمه ، ما يجعله عيبا وما يجعله من قبيل الفضيلة . وواضح انه من العبث البحث عن قواعد اثبات لمثل هذه السنن . وبالاصلاح المستمر واعادة النظر ، وبالمرونة الكبيرة في تطبيق أحكام تلك الشرائع فحسب يمكن الوصول الى نتيجة مقبولة . ولا حاجة بي هنا الى نكرار اجراء الفحص الطويل الدقيق على اولئك الذين صدّرتُ بهم مسرحيتي (العرسان) وانما يهمني هنا آراء يسوع في الموضوع . ولاجل نفهم موقف الناس منها ارى من الضروري ان لا نتخذ من الاستحسان العام لقرار يسوع البقاء على حياة العزوبة كذريعة ومثابة لتعزيز وجهات نظره وتقويتها . اننا من الموضوع في حالة ارتباك ليس الا . على ان جانبا من الاضطراب يعزى الى استنتاجنا ان يسوع الذي كان عازبا بل منكمشا حتى من فكرة ولادته الطبيعية ، تتسبث تشبثا عنيدا بقداسة الشريعة التي تؤمن مخرجا من العزوبة وخلاصا .

في السرّاء وفي الضراء

وعلى اية حال لم يعبّر يسوع في موضوع الزواج عن راي فيه تعقيد . ولم يكن اعتراضه عليه كبيرا بل في منتهى البساطة كما رأينا . لقد ادرك بأن لا احد يستطيع ان يعيش الحياة الساميه الا اذا كان المال والحب والجنس مما يمكن الحصول عليه دون التضحية بتلك الحياة . وقد راى ان تأثير الزواج كما كان موجودا عند اليهود (لا يزال موجودا ايضا) هو الذي يجعل الزوجين يضحيان بكل اعتبار ومبدأ سام ليطعم احدهما الآخر ويعمل على اسعاده ، وأسوأ ما في ذلك ان هذه الحالة الخطرة المتافية للطبيعة في الزواج تشتد سوءاً بدلا من ان تتحسن بمدى تحسن سلوك الزوجين عموما . ان الزوج الاناني الذي لا يرى في امرأته

اكثر من أمة رقيقة والزوج الانانية التي لا ترى في بعلها اكثر من كبش فداء وكادح في سبيل الخبز ، لا يصدهما عن المغامــــرة الروحية او اية مغامرة اخرى اي خوف من تأثير لها على سعادة وراحة رفيق العمر . والازواج لا يقيدون زوجاتهن الى المهد ولا يقصرونهن على محيط الطبخ عندما يجب ان تكون أقدامهن الجميلة فوق الجبال . لكن عندما يغدو الناس فهم اكثر حنانا وأيقــظ ضميرا واكثر استعدادا لحمل الجزء الاكبر من العبء (بمعنى ان القوي سيذعن للضعيف ، وان البطيء يحتجز السريع) فان الزواج يصبح عقبة لا تطاق في سبيل ارتقاء الفرد . وهذا هو السبب في ان الثورة ضد الزواج التي كان يسوع اول المبشرين بها ، تكر علينا راجعة عندما ترفع الحضارة مستوى الواجبات الزوجيــة وروابطها العاطفية وفي الوقت نفسه توجد عند حرية الفــرد حاجة اكبر للسعي نحو المزيد من الرقي .

العــلاج

هذا هو وجه واحد فقط من وجوه الزواج لحسن الحــظ وهنا يعن لك السؤال التالي : أيمكنك استئصال شأفة هذا الوجه؟ والجواب مطمئن ومريح : «طبعا ذلك ممكن» ففي طبيعة الاشياء ، ليس هناك مانع بشري يمنع اعتماد الزوجين احدهما على الآخر اقتصاديا . ان الشيوعية التي بشّر بها يسوع تتخلص من هذه العقبة تماما . وهي كما راينا شيوعية ممكنة تماما لا مفر منها. ان كان من الواجب علينا انقاذ مدنيتنـــا من الانهيار وبالاعتمـــاد الاقتصادي ستتلاشى قوة المزاعم الشائنة التي تستمد شرعيتها الحقة من الضغط الاقتصادي الذي يكمن وراءها . عندما يسمح الرجل لامراته بأن تصرفه عن خير عمل يستطيع القيام به فتحمله على بيع نفسه بأعلى ثمن تجاري يمكن الفوز به ، وعندما يسمح

الرجل لامراته بأن توقعه في أحبولة روتين اجتماعي من شأنه ان يضنيه ويرهقه او عندما تشده بشريط مئزرها في وقت كـــان بحاجة الى تلك الوحدة التي هي حق من اقدس حقوق البشر بين فترة واخرى فانه يفعل ذلك لانه لا يملك الحق في ان يفـــرض عليها مقاييس شاذة عن العرف والعادات اللااجتماعية ولأن هذه الاحوال بضغوطها المختلفة قد اولـــــدت عادة تكبيل القرينين المتزوجين احدهما بالآخر حتى بلغ من شيوعها ان الناس المتزوجين يصبحون هدفا لسخرية فظة عندما يعمد عشراؤهم الى كسر ذلك القيد ، وعندما يحكم الابوان على امراة بالانتظار في حالة مـــن التعطل التام وتبديد الوقت حتى يأتيها زوج في حين تدعوهـــا غرائزها الاجتماعية السليمة الى البحث عن مهنة وعمل فـــان اتكالها الاقتصادي عليهم هو الذي يجعل طغيانهم مؤثرا .

ما يعزز من حجة الزواج

وهكذا ، فمع اننا نغالي عندما نقول بأن كل ما هو كريه في الزواج وفي حياة الاسرة سينتج الشيوعية عند معالجته ، يمكن القول بأن هذا النظام ينجح في شفاء ما عارضه يسوع من تلـــك الشرائع والسنن . انه لم يقم بدراسة مستفيضة لتلك الشرائع لكنه عبّر عن شكواه بشعور طاغ ، اعني الشكوى التي بلغت من العمق حداً انها لم تراع اي اعتبار للجانب الآخر من الموضوع حتى لكأنها غبار في كفة ميزان . ومن الواضح ان ثم اعتبارات وجيهة جدا حملت تاليران على القول بأن المتزوج ورب العائلة قمين بعمل اي شيء ، فقد قصد (بأي شيء) كل شيء . الا ان متفائلا قـــد يقول (والى جانبه نصف الحقيقة بالضبط) : ان المتزوج جدير بكل ما هو صالح ، وان الزواج يجعل من المتشردين الافاقين مواطنين مثابرين دؤوبين . وان الرجال والنساء مدفوعين بحبهم لشركاء

حياتهم واطفالهم سيسلكون طريق الفضائل التي يعجز عن ممارستها فرد لا يشده هذا الرباط . وصحيح ان الكثير جدا من هذه الفضيلة العائلية هي مجرد «انكار ذات» وانكار الذات في الواقع ليس من قبيل الفضائل مطلقا . على ان اتباع النور الداخلي مهما بلغت التكاليف هو على الاغلب مسعى ذاتي لا يقل بأي حال من الاحوال عن انكار الذات بكل ما فيه من ضعف وجبن وميول انتحارية . ان ايبسن (١) الذي يأخذ بيدنا الى معالجة المسألة بعزم أشد من عزم يسوع يقف عاجزا عن ايجاد قاعدة ذهبية . فكل من براند وبيرغنت انتهيا الى نهاية سيئة ومع ان ما احدثه براند من ضرر لم يرق الى مستوى ما أحدثه هذا الآخر فانه كان ذا اثر فائق للعادة .

العزوبة ليست بعلاج

فيما اظن ، ينبغي لنا التأمل في اعتراض يسوع على روابط ،جية والاسرة ، باعتبارها من قبيل المزاعم التي يدعي التخلص والتحرر من قيودها طائفة معينة من الافراد ، لكونها تعرقل لهم الى درجة لا يطيقونها . وعندما قال لنا يسوع انه يترتب اذا اخترنا طريقه والسير على هديه — ان نترك روابطنا بلية ، فانه كان يقرر حقيقة من الحقائق. وانك لترى الكاهن اثوليكي ، واللاما البوذي ، والفقير الهندي (٢) ومن لف لفهم

---

١ — Henrik Ibsen (١٨٢٨ — ١٩٠٦) مسرحي وشاعر ومفكر نرويجي هاجم مقاييس السلوك الاخلاقي السائد . ومن اهم مسرحياته (براند ، وبيرغنت) .

٢ — اللاّما هو الراهب البوذي من اتباع الديانة البوذية المنتشرة في التبت وجنوب الشرق الاقصى من آسيا والصين على الاخص . و«الفقير» الهندي هو رجل تقي نذر نفسه للتجوال والعيش على الصدقات .

من كل طائفة او ملة يقبلون بهذا القول . كذلك تجده مقبولا من ذوي المهن التي تتطلب مجهودا بدنيا وعند كل صنف من المستكشفين النشطين الذين لا يستقر لهم قرار ، وبمختصر القول انك تجده مقبولا عند المغامرين . وأعظم تضحية في الزواج هي تضحية الموقف الذي ينطوي على المغامرة بالحياة وبالاستقرار . ان أولئك الذين يشكون التعب المزمن قد يتلهفون الى الاستقرار. والاستقرار للنفوس القوية المتفتحة هو شكل من اشكال الانتحار .

والآن فالقول عن اية سنّة من السنن بأنها لا تتمشى مع الحياة المفكره المندفعة المغامرة ، هو اعظم ما يمكن ان يوجه اليها من انتقاص ، بحيث ان جميع التأويلات الاخلاقية لكل الاساقفة والوكلاء لا يمكن ان تعيد انفسنا الى عبوديتها . فيسوع غير المتزوج وبيتهوفن غير المتزوج وجان دارك البتول ، والعذارى : كلير وتيريز ونايتنكيل يبدون كلهم كما يجب ان يكونوا . فالقول بأن في الفيلسوف المتزوج ما يدعو الى الاستخفاف دوما، يغدو قولا لا مناص منه . ومع هذا فان العازب ما زال موضع استخفاف وسخرية أكثر من المتزوج . والكاهن في قبوله بالبديل ، اي بالعزوبة ، يجعل من نفسه شخصا عاجزا ، وخير القسس هم من كانوا رجالا علمانيين قبل ان يصبحوا من رجال العالم الآتي. ولكن لما كان نذر التبتل لا يبطل زواجا قائماً ، ولما لم يكن بوسع الرجل المتزوج ان ينضوي الى سلك الكهنوت ، فاننا نعود ثانية لنجابه شذوذا ، وهو ان خير القسس هو ذلك الخليع الذي ثاب الى رشده وتاب . وهكذا يدفع بنا الزواج الذي هو امر لا يطاق بحد ذاته ، الى خيارين كلاهما غير محتمل ! والحل العملي هو ان يجعل الفرد مستقلا اقتصاديا عن الزواج والاسرة . ويجعل عقد الزواج سهل الابطال كأي عقد شراكة وبعبارة اخرى الرضى بالنتائج التي تتجه اليها ببطء تجربة كل من علماء الاجتماع وواضعي القوانين عندنا . وليس هذا مما يعالج شرور الزواج ولا

ان يقتلع بضربة واحدة تقليده المجـــوج في الاستئثار بالابدان البشرية بل سيترك الطبيعة حرة لتبتدع علاجا . وفي التربـــة الحرة يذوي الجذر ويموت .

ان هذا يسير ويتمشى مع كل آراء يسوع وتعاليمه التي مـا زالت ميدان اخذ ورد وكلها تتفق بصورة باتة مع افضل نتـــاج الفكر الحديث . لقد أبلغنا بما يتوجب علينا عمله فترتب علينا أيجاد سبيل العمل . وما زال معظمنـــا كما كان معظم معاصري يسوع متطرفين في معارضتنا ومرغمين على السير في هــــذا النهج بضغط أليم من الظروف ، فنحتج في كل خطوة نخطوها بقولنا لا شيء يرغمنا على السير ، انه لسبيل مضحك ، سبيل شائن ، سبيل لا اخلاقي ، وانه يجب على الطبيعة ان تخجل من نفسها وتعود القهقرى حالا . الا انهم على اية حال مضطرون الى السير وراء تلك الطبيعة ان ارادوا ان تكون للحياة قيمة .

الفصل التاسع

ما بعد الصلب

الا فلنعد الآن الى قصة الرسل لان ما حصل بعد غياب يسوع له دلالته . كان الصلب لسوء الحظ ، نجاحا سياسيا كاملا . واذكر اني احدثت صدمة عنيفة في جريدة دوبلن ديلي اكسبرس التي تتمتع بأكبر منزلة من الاحترام في مسقط راسي ، عندما وصفت الصلب بهذا الشكل مرة فيما مضى ، ذلك لان عبارتي الصحفية اظهرتني وكأني أعالج المسألة كما اعالج اية حادثة من الحوادث الاعتيادية ، كمسألة الحكم الذاتي او قانون التأمين الاجتماعي أعني كواقعة حصلت فعلا وان لم يخطر ذلك ببال رئيس التحرير - لا كجزء من العقائد المذهبية او الطقس البيعي . واني لاكرر عن هذه الواقعة بوصفها وقعت فعلا - انها نجاح كامل لحدث تاريخي كامل الابعاد والمسيحية كعقيدة قائمة بذاتها قتلت بمقتل يسوع فجأة وبصورة نهائية . فقبل ان يبرد جسده في القبر ، او قبل ان يبلغ سماواته (اختر منها ما يحلو لك) قام

الرسل بجر تعاليمه الى الاسفل حتى بلغوا بها المستوى الذي بقي عليه منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا . ويدرك الكفار الاذكياء هذا الامر من قراءتهم رواية صموئيل بتلر الموسومة (الطريق الى كل اللحم) (١) بارشاد الكتب الحديثة وعلى هديها .

الاعاجيب الانتقامية ورجم اسطفانس

خذ الاعاجيب مثلا . فيسوع هو الوحيد من بين صنعة الاعاجيب المسيحيين الذين لم يجر على يده او تذكر له اعجوبة سيئة العقبى او تدميرية او انتقامية الا في بعض الاناجيل التي رفضها جميع المسيحيين . ان التينة العقيمة (٢) كانت الضحية الوحيدة لسخطه . وكل معجزة من معجزاته في المسائل الحساسة هي اعمال حنان وعطف وبناء . يقول يوحنا انه ابرأ جرح الرجل الذي قطع بطرس (٣) اذنه بسيفه عندما جاؤا لاعتقاله في بستان الزيتون . الا ان من أولى الاعمال التي قام بها الرسل مستعينين بقواهم الخارقة هو قتل رجل تاعس مع قرينته لانهما خدعاهم باخفاء جانب من المال وحبسه عن ملكية المجموع كما اصابوا بعض الناس بالعمى او الموت دون تأنيب من ضمير او ندم . لقد ادانوا لانهم كانوا قد اُديسوا . والحقيقة انهم ابرأوا المرضى واحيوا الموتى تحدوهم كما يظهر روح الدعاية والاعلان وحب الظهور ليس الا . ولم يكن مبدؤهم يحوي شعاعا وقبسا من ذلك النور الذي يظهر

---

١ ـ The Way to all Flesh عنوان قصة لصموئيل بتلر طبعت بُعيد وفاته وهي في الواقع سيرة حياته مع ابيه المتدين الذي وجد في تدينه طغيانا لم يطقه.

٢ ـ لوقا : ف ١٣ .

٣ ـ يوحنا : ف ١٨ .

يسوع واحدا من مخلصي البشر من الاثم والدنس . لقد تخطى الرسل معلمهم ، وعادوا رأسا الى يوحنا المعمدان والى مبدئه الذي يشترط الندامة والمعمودية لغفران الذنوب أعني «الولادة الثانية بالماء والروح» . وان أول خطبة القاها بطرس تذيب قلوبنا بانسانية استهلالها . وهي تأكيد جذاب لمستمعيه بوجوب الوثوق بصحوته لان الوقت جد مبكر على شكره . الا انه لم يضف شيئا عن يسوع الى ما قاله فيه قبلا ، الا ذكره بأنه المسيح الذي تنبأ بقدومه الانبياء ، وبانحداره من نسل داود ، وأوصى بالايمان بهذا ، وأوجب المعمودية على المؤمنين به . والى هذين الشرطين اضاف الرسل الآخرون تنديدات لا نهاية لها باليهود لانهم صلبوه، وتهديدات بما سيحل بهم من الدمار ان لم يتوبوا ويندموا على ما اقترفوه ، اعني ان لم ينضموا الى الطائفة التي يقوم الرسل بانشائها . ألقى خطيب في مقتبل العمر لا يمكن الصبر عنه ابدا اسمه اسطفانس خطبة في المجمع رمى المستمعين فيها اولا بالتهمة المملة التي الصقها بهم التاريخ الاسرائيلي وهو التأريخ الذي كانوا على اغلب الظن يعرفونه مثلما يعرفه هو . ثم انشأ يشتمهم بعبارات جارحة جدا كقوله «يا غلاظ الرقاب وذوي القلف» . اخيرا ، بعد ان اضجرهم وأزعجهم الى الحد الذي لم يعودوا يطيقون عليه صبرا ، شخَص بأنظاره الى الاعلى وصاح قائلا انه يرى السماوات تفتح ابوابها والمسيح واقفا عن يمين الله ، وكان هذا خارجا عن قابلية احتمال اكثرهم حلما فقذفوا به الى خارج المدينة وتولوا رجمه حتى قتلوه ، وهذا أسلوب قاس صارم في اسكات مغرور سمج ثقيل الظل . الا انه عمل انساني يمكن اغتفاره اذا ما قورن بمقتل حننيا وسفيرة .

بولس

وفجأة يدخل المسرح بولس العبقري العنيف في عدائه

للمسيحية . يدخل حارساً ثياب راجمي اسطفانس . انه ليشتد في اضطهاد المسيحيين حتى يجاوز فيه كل حد معتبرا ذلـــك هواية فضلا عن العمل الذي يرتزق منه وهو نسج الخيام. وكرهه العجيب هذا بيسوع الذي لم يقع عليه نظره هو من قبيل الاعراض الباثولوجية . انه ذلك النوع من التكوين العصبي والفكري الذي يؤدي بالمرض فيه الى الوقـــوع تحت طغيان نوعين من الرعب الهلوسي : رعب الاثم ورعب الموت . او ما يمكن تسميتهما بالخوف من الجنس والخوف من الحياة . فها هو يسوع بعقله السليم وبأعلى درجات الحصافة والاتزان ، تراه متحررا تماما من هذين الخوفين فيخالط الخطاة غير هيّاب ولا وجل ولا يهتم ــ على قدر معلوماتنا ــ بما يرى الآخرون في سلوكه اهو ناب ام مستقيم . وبهذا ارغمنا على قبوله شخصا خاليا من العيوب ، طاهرا من الاثم والخطيئة . وحتى لو اعتبرنا ايامه الاخيرة ايام وهم ورؤى بالنسبة له ، فقد بدا على اية حال بمظهر مقنع الى حد بعيد بارتفاعه عن شعور الخوف من الموت . ولا بد ان هذا المظهر ارعب بولس او شاؤول (كما كان يدعى اولا) وفتنه في الوقت نفسه . فالرعب دفعه الى اضطهاد المسيحيين اضطهادا لا هوادة فيه . والفتون كان سببا لرؤيا من أغرب الرؤى التي شاهدها . رؤيا ارتباط اسم يسوع المسيح بالفكرة العظيمة التي داهمته كوميض البـرق الخاطف وهو في طريقه الى دمشق ، وهي فكرة عجزه عن انشاء دنيا من الخوفين اللذين يمتلكانه . فضلا عن ان الحركة التي بدأها المسيح زودته بنواة لكنيسته الجديدة . كانت فكرة مريعة تلك التي لاحت له . ومثلها كانت الصدمة التي خلفتها فيه كما أقر هو نفسه فيما بعد . لقد اطفأت نور عينيه فبات أعمى عدة ايام . اذ سمع يسوع يناديه من السحاب قائـــلا «يا بولس لماذا انت تضطهدني ؟» . ان بغضته الطبيعية بـ (المعلم) الذي لم يكن للموت او للخطيئة اي تاثير من الخوف عليه ، انقلبت الى عبادة شخصية

جنونية له . تلك العبادة التي تتمثل فيها روعة الشيء الجميل منظورا من زاوية ضوء كاذب خالب (١) .

لا يرى مدوّن كتاب (اعمال الرسل) شيئا يلفت النظر في هذا. والخطر الاكبر للهداية الى عقيدة ما في كل العصور كان يكمن في هذا : عندما يتقدم دين العقل الرفيع الى العقل الادنى ، فان العقل الادنى الشاعر بفتنة العقل الرفيع وطغيانه من دون فهم له مع عجز عن الارتفاع الى مستواه ، فما يكون منه الا ان يقوم بجره الى الاسفل حتى يصل به الى مستواه عن طريق الحط من قدره وارتخاص قيمته . منذ سنوات خلت قلت ان اهتداء الانسان الهمجي الى المسيحية ، هو في الواقع اهتداء المسيحية الى الهمجية ، واهتداء بولس ليس اهتداء على الاطلاق . ان الدين الذي رفع انسانا فوق الخطيئة والموت، حوّله بولس الى دين استسلم ملايين الناس الى سلطانهما تسليما مطلقا ، بحيث اصبحت طبيعة وجودهم مجرد خوف وغدت الحياة المتدينة انكارا للحياة اصلا . لم يكن في نية بولس قط ان يسلم (يهوديته) او جنسيته الرومانية (للعالم الاشتراكي اليسوعي الاخلاقي الجديد) كما اطلق عليه روبرت أون (٢) . وكارل ماركس نفسه لم يكتف في عصرنا هذا بأخذ الاقتصاد السياسي كما وجده بل أصر على اعادة بنائه من القعر الى الاعلى بطريقته الخاصة . وبهذا اعطى للاخطاء الجديدة التي كانت تتنامى وتتعاظم فرصة جديدة للتصحيح والحياة . كذلك الامر ببولس فقد اعاد بناء عقيدة الخلاص القديمة (وهي

---

١ ـ ف ٨ : اعمال الرسل .

٢ ـ Robert Owen (١٧٧١ ـ ١٨٥٨) مصلح اجتماعي انكليزي ومن اوائل زعماء الحركة النقابية العالمية . اشتهر بكتابه «نظرة جديدة الى المجتمع» .

العقيدة التي حاول يسوع انقاذها منه ومن أمثاله فباءت محاولته بالفشل) ، فانتج من جراء ذلك لاهوتا عجيبا ما زال اغرب شيء معروف من نوعه لدينا . ولما كان من التاحية الثقافية عقلانيا رومانيا اصيلا يطرح دائما ما لا يستقيم مع العقل في المسائل الحقيقية ليأخذ بسبيل الاشياء غير الحقيقية (المسلم بها استقرائيا ومنطقيا معذلك) فقد بدأ بانكار الانسان كما هو واختار بدلا مسلما به وهو آدم وهو ما كان يجب أن يحصل في الواقع لدنيا ليست كلها مصابة بالجنون . وعندما سئل «ماذا حل بالبشر السوي ؟» اجاب «آدم هو البشر السوي» وكان جوابه محيّرا السذج (لان اسم آدم كان بحسب التقليد اسما للانسان السوي الذي خلق في جنة عدن بالتأكيد) حتى لكأن واعظا في عصرنا هذا قد وصف بأنه مثال فرانكشتاين بريطاني . ثم سماه سمث . وعندها سأل احدهم : «وماذا يقال عن رجل الشارع ؟» فأجيب «سمث هو رجل الشارع» وهذا الشيء هو كثير الحدوث . والواقع ان العالم حافل بهؤلاء الآدميين والسمثيين ورجال الشارع والشهوانيين العاديين والاقتصاديين كذلك يعج بالنسوة الانثويات وما الى ذلك . وكل من هؤلاء اطلس (١) خيالي يحمل دنيا خيالية على كتفين وهميتين .

أن قصة جنة عدن تزود آدم بخطيئته الاصلية التي اصابتنا كلنا بلعنة والاثر يبدو سخيفا بوضعه بهذا الشكل السيء. ومعهذا فهو متعلق بشيء له وجود فعلي لا في ضمير بولس وانما في ضمائرنا نحن ايضا . ان الخطيئة الاصلية لم تكن بسبب اكل الثمرة المحرمة بل للشعور بالاثم الذي يولده أكلها . ففي الوقت

---

١ — هو اسم لابن احد العمالقة في الاساطير الاغريقية الغابرة تقول الاسطورة منه انه عوقب بان يقوم بحمل السماء على كتفيه .

الذي ذاق به آدم وحواء التفاحة وجدا نفسيهما خجلين من علاقاتهما الجنسية التي ظلت تبدو لهما قبلها امرا لا غبار عليه . ولا مجال ثم للتغلب على الحقيقة الثابتة وهي ان هذا (الحياء) او (حالة الشعور بالاثم) قد ظلت تلازمنا حتى يومنا هذا ، وانها كانت واحدة من اقوى غرائزنا . ولهذا فان تسليم بولس بأن آدم هو الانسان الطبيعي هو تسليم صحيح من الوجهة البرغماتية (الذرائعية) حالفه النجاح . على ان نقطة الضعف في البرغماتية هي ان معظم نظرياتها يحالفها النجاح عندما تصمم انت على انجاحها شريطة ان لا تخلو من ناحية بشرية ولا تناقض الطبيعة الانسانية . ان الهيدونية ستجتاز الاختبار البرغماتي ، فضلا عن الرواقية نفسها . وكل مبدأ اجتماعي سيحالفه النجاح الى حد ما ان لم يكن مبدأ جنونيا صرفا مائة بالمائة . فالاتوقراطية نجحت في روسيا ، والديمقراطية نجحت في امريكا . والالحادية نجحت في فرنسا ، وعبادة الآلهة العديدة نجحت في الهند ، والوحدانية نجحت في الاسلام ، و«اللائية» (١) نجحت في انكلترا . ان المفهوم العجيب لآدم الملعون عند بولس الذي مثّله بونيان بحاج ينوء ظهره بحمل من الخطايا عظيم ، يماثل الشرط الاساسي للارتقاء الذي ينص على ان الحياة وبضمنها الحياة البشرية، ترتقي باستمرار ، فعليها والحالة هذه ان تخجل من نفسها ومن حاضرها ومن ماضيها باستمرار . ان حاج بونيان يريد التخلص من حمل خطاياه ، الا انه يريد كذلك ان يبلغ «الضياء الساطع البعيد» وعندما يسقط عنه حمله اخيرا امام ضريح المسيح ، سيجد حجته ناقصة وان اشق تجاربه ما زال ينتظره . وضميره سيبقى معذبا

---

١ ــ No-ism هذا تعبير ابتدعه شو هنا ، للاشارة الى الخلق السلبي الذي تجده عند فريق من الناس . وهو عدم ايمانهم بما نقول وانكارهم كل شيء.

غير مرتاح والخطيئة الاصلية ما برحت تورثه الآلام ومغامرته مع الجبار المسمى (اليأس) الذي يقذف به الى جب (قلعة الشك) (يفلت منها باستخدام مفتاح رئيس) (١) هي افظع من اية تجربة مرت به يوم كان حمل خطاياه مردفا على عاتقه .

ان قصة بونيان الرمزية عن الطبيعة الانسانية ، تغزو لاهوت بولس في مائة نقطة ونقطة .-ان قصته الرمزية اللاهوتية والحرب المقدسة بجنودها من النخبة المرتابين وفرسانها الذين يمتطـــون صهوات «خيل الاصلاح» هي سخيفة ككل ، مستحيلة يكاد يمجها الذوق فلا يقوى المرء على قراءتها باستثناء الفقرات التي ترى فيها آدم الفنان الشيخ وهو يغزو فيستظهر في كل لحظة على ذلك اللاهوتي الخلاصي ! (٢) .

ان نظرية بولس في الخطيئة الاصلية كانت تمتاز بميزة معينة الى حد ما . فهو يقول جازما بأنه قادر على اجتناب الوقوع في خطيئة الجنس باتخاذ الصفة الفردية . الا انه يدرك بشكل يغلب عليه الاستخفاف بأنه في هذا المجال ليس كالآخرين فيقول : خير لهم أن يتزوجوا من ان يحترقوا ، وبذلك يسلم ان الزواج وان كان يؤدي الى تقديم الرغبة في مسرة الزوجة او زوجها على الرغبة في مسرة الله ، الا ان الانشغال بالرغبة التي لم تشبع قد تكون كفرا بالله اكثر اثما من الانشغال بأمور العاطفة الزوجية . انوجهة النظر هذه الى القضية ادت به بصورة لا مفر منها الى الاصرار على ان المرأة يجب ان تكون أمة رقيقة لا شريكة حياة ، وان مهمتهـــا الحقيقية ليست لاجتذاب حب الرجل واخلاصه بل بالعكس لاجل

---

١ ــ SkeletonKey وهو مفتاح مصنوع بصورة خاصة ليفتح اكبر عدد من الاقفال .

٢ ــ يقصد به الرسول بولس كما هو واضح .

اطلاقهما وتوجيههما الى الله بتحرير الرجل من كل انشغال بالجنس مثلما تحرره بوصفها مدبّرة بيت وطاهية ، من انشغاله بأمر الجوع ، يتم ذلك بالوسيلة البسيطة : وهي اشباع شهوته . هذه العبودية تبرر نفسها برغماتيا بالعمل بصورة مؤثرة . الا انها جعلت بولس عدواً خالداً للمرأة ، وأدت بصورة عفوية الى كثير من الحدس والتخمين الاحمق حول اخلاق بولس الشخصية وظروفه من قبل أناس استبد بهم الشبق الجنسي حتى عدّوا العازب غولا مخيفا . وهم ينسون بأن كل طبقة الكهنة الرسميين وغير الرسميين ، ابتداء من بولس حتى كارليل ورسكن قد تحدت طغيان الجنس فضلا عن عدد كبير من المواطنين العاديين من الجنسين انقذوا مؤهلاتهم وطاقاتهم سعيا وراء ضروب نشاط أقل بدائية وبهيمية من النشاط الجنسي اما باختيارهم واما تحت ضغط ظروف يمكن التغلب عليها بسهولة .

ان بولس على اية حال ، نجح في سرقة صورة المسيح المصلوب ليجعله تمثالا لقيدوم سفينته الخلاصية وليجعل آدم متخذا فيها شكل وابعاد الانسان الطبيعي ، الى جانب العقيدة بالخطيئة الاصلية ولعانها الذي لا يمكن الخلاص منه الا بالايمان بتضحية الصليب . والواقع انه ما ان قام يسوع بطرح تنّين الخرافات ارضا ، حتى بادر بولس بانهاضه على قدميه انهاضا باسم يسوع نفسه .

فوضى العالم المسيحي

بات واضحا الآن انه يجب الا يخلط المرء بين دينين لهما تأثيران مختلفان في البشرية ولهما في الوقت نفسه اسم واحد . ليس هناك كلمة واحدة من مسيحية بولس في اقوال يسوع التي

تحمل طابعه . وعندما وقف شاؤول (١) حارسا على ثياب أولئك الذين رجموا اسطفانس فانه لم يقم بذلك بوحي من المعتقدات التي نبذها بولس . كذلك ليس هناك قط ما يشير الى ان يسوع قال لاي انسان «اذهب واثم قدر ما تريد وبامكانك ان تضع آثامك كلها على عاتقي» بل قال «لا تأثموا» واصر بأنه انما يضع حدودا ومقاييس للسلوك ، وليس يحط من مستوى السلوك . واكد ان صلاح المسيحي يجب ان يرتفع عن مستوى صلاح الكتبة والفريسيين وان فكرة بذل دمه حتى يخوض فيه كل محتال وزان وفاجر ، ليخرج منه وهو انصع بياضا من الطيف ! لا يمكن ان تعزى الى يسوع من مرجعه نفسه أعني لا يمكن ان نعزو اليه قوله مثلا «جئت كعفّار ذي علامة مسجلة ، لا يخطىء مفعوله ، لمعالجة الضمائر المريضة والجانحة» ان هذا ليس من اقوال الاناجيل . ولو كان بالامكان استشارة يسوع في قصة بونيان الرمزية حول موضوع حمل الخطايا الساقطة عنظهر الحاج عند رؤيتهالصليب، فعلينا ان نستنتج من تعاليمه بانه كان سيقول لبونيان بلهجة جازمة : انك لم ترتكب في حياتك خطأ اعظم من هذا . وان وظيفة المسيح هو ان يجعل الآثمين المغرورين يشعرون بعبء خطاياهم فلا يعودوا يرتكبونها ، لا التأكيد لهم بأنهم امامها عاجزون لا يستطيعون لها دفعا ما دامت كلها بسبب خطيئة آدم على ان هذا لا يهم ما داموا ينظرون الى المسيح نظرة صداقة وتصديق . حتى عندما اعتقد انه إله فانه لم يعدّ نفسه كبش فداء . وكان يترتب عليه ان يمحو خطايا العالم بحكومة جيدة ، وبنشر العدالة والرحمة، ووضع مصلحة اطفاله فوق غرور الامراء والقاء كل الشعوذات والوثنيات التي تغتصب قوة الله وتفسدها فيما تسميه سلطاتنا

---

١ ــ هذا هو اسم بولس اليهو ، الاصلي .

الحاكمة اليوم «بآلة اتلاف النفايات» وبركوب سحـــاب السماء بالمجد بدلا من ركوب سيارة ثمنها ألف جنيـــه (١) . ان هذا ، هذيان لو تدبرته ! على انه هذيان روح حرة لا هذيان روح أسيرة الخجل كروح بولس . وفي الحقيقة ليس ثم خدعة يرتكبها أمرءٌ افظع من خدعة مقارنة روح بولس وتحديدها على ضـــوء روح يسوع .

سر نجاح بولس

لا شك ان الزمن لم يطل ببولس ليجد أتباعه قد توصلوا الى راحة البال وحققوا الانتصار على الموت والخطيئة على حساب كل مسؤولية ادبية ، اذ انه عمل جهده لاعادة صياغة المبادىء بجعل حسن السلوك محكا للايمان الراسخ، مصراً على ان الايمان الراسخ المكين ضروري للخلاص ، ولكن لما كان نظامه قد ثبتت جذوره فيما اتضح بأن ما سمّاه خطيئة انما يتضمن الجنس ولما كان والحالة هذه جزء لا يمكن فصله عن الطبيعة البشرية (والا لماذا وجب علـــى المسيح ان يكفّر عن آثام كل الاجيال القادمة ؟) فقد تعذر عليـــه التصريح بأن الاثم ــ حتى في اشنع مظاهره ــ قادر على ضمان خلاص الآثم اذا ندم وآمن . ومسيحية بولس الى يومنا هذا ما هي الا «علاوة راتب !» للاثم ، كذلك فهي تدين بفضل موضتها الشائعة جدا الى كونها كذلك ، كان من الواجب على تلك الاغلبية التي خبرت الحياة ، ان تكبح جماح نتائجها وآثارها بنظـــــام اشتراكي عنيف وهو قانون العقوبات والقواعد الاخلاقية الصارمة. على ان الكابح الرئيس هو الطبع البشري بطبيعة الحال ، ففيه

---

٢ ــ اي : سيارة باهظة الثمن .

الميول الصالحة كما فيه الميول الطالحة ، تراه يحجم عن السرقة والقتل والقسوة حتى عندما يبترونه بأن في مقدوره ان يقترفها كلها على حساب المسيح ثم يعرج الى السماء سعيدا مطمئنا ، لمجرد انه لا يرغب دائما في ان يقتل او يسرق ، او يعذب .

ويسهل كثيرا اليوم فهم سبب فشل مسيحية يسوع فشلا تاما في تثبيت نفسها سياسيا واجتماعيا ولماذا كان من السهل جدا خضد شوكتها وتصفيتها بقوة الشرطة والكنيسة ، في حين اجتاحت البولسية العالم الغربي المتمدين كله ، وكانت في ايامه الامبراطورية الرومانية التي اتخذت من البولسية دينا لها رسميا فخرّت الآلهة المنتقمة القديمة صريعة وباتت عديمة الحول أمام «المخلّص الجديد» . على ان تلك الآلهة كما نرى ، ما زالت محتفظة في افريقيا لسلطانها في اداء رسالة الامل والعزاء البسطاء بشكل لا يفاج فيه ولا يقوى عليه دين آخر . على ان هذا السحر يولّده امتزاجها غير الشرعي مع السحر الشخصي الذي حازه يسوع ولم يحرزه الا لاجل العقول البدائية التي ينقصها التدريب . الا ان الامر اختلف عندما وصلت الى يد رجل منطبق مثل كالفن فقد دفعها الى غاياتها القصوى مستنبطا كنائس «للبالغين من بين اولاء الاسكتلنديين الحمقى والسويسريين الواقعيين» وبذلك جعلها اشد العقائد الجبرية جهنمية ! يفسد منطقها حياة الاطفال المتمدينين ، في حين يسعد الزنوج الاقزام في خرافاتها .

فضائل بولس

ومهما يكن من امر فبولس لم ينل سمعته العظمى بمجرد «الارغام» و«رد الفعل» . وهو لا يبدو مبتذلا او مختالا الا عندما يقارن بيسوع (الذي يفضله الكثيرون عليه) . وان هو بدا في اعمال الرسل إحيائيا مبتذلا سوقياً فانه يبدو في سفر اعماله

الخاص ، شاعرا مطبوعا وان كانت تلك الشاعرية تبدو كإيماضات خاطفة . كان بولس بعيدا عن المسيحية ، قدر ما كان يسوع بعيدا عن المعمدانية . انه تلميذ ليسوع قدر ما كان يسوع تلميذا ليوحنا المعمدان ، لا يعمل شيئا مما كان يسوع يهم بعمله ، ولا يقول شيئا مما كان يسوع سيقوله . ولو انه طبق مثال (التقدمة الى الاحسان) (١) المشهور لزاد الاعجاب به . انه اشد تمسكا باليهودية من اليهود ، وأقوى رومانية من الرومان. وهو يفخر بالوجهين ولا ينضب له معين من الاعترافات المذهلة والرؤى الشخصية التي لا نندهش اذ نراها تنسل انسلالا الى صفحات نيتشه . يعذبه ضمير مثقف لا يفتأ يتطلب قضية مُحكَمة على حساب المغالطة مع مختلف انواع الفضائل الجميلة والومضات العقلية العرَضية اللامعة ، الا انه لا ينى يرزح دونما أمل بالخلاص ، تحت وطأة الاثم والموت والمنطق وتلك أمور لم يكن لها اي سلطان على يسوع . وقد سبق فرأينا ان مزجه شعوره بالعبودية والرعب في العقيدة المسيحية ادى الى تبني الكنيسة والدول والانظمة السياسية لذلك الاتجاه ، وهذه أمور سما فوقها يسوع ، وهكذا جعل بولس المسيحية عقيدة عملية بقضائه على الجانب اليسوعي فيها على الاخص . وهذا ما قد يكون مناسبا تماما لاية دولة بروتستانتية لذلك كان هو وليس يسوع الزعيم الحقيقي والمؤسس الاول لكنيسة الاصلاح ، كما كان بطرس مؤسسا للكنيسة الرومانية . واتباع بولس وبطرس هم الذين أوجدوا العالم المسيحي ، اما الناصريون (٢) فقد قضي عليهم القضاء المبرم .

---

١ ـ او الصدقة او ما يدعى بموعظة يسوع الكبرى وهي الفصول ٥ و٦ و٧ من انجيل متى و(الاحسان) المقصود هو الفقرة التي تضمنها الفصل السادس .

٢ ـ اعني اتباع يسوع الناصري .

اعمال الرسل

لنا ان نعود هنا الى القصص المسماة بأعمال الرسل . وكنا قد دققنا فيها عند مرحلة رجم اسطفانس واتبعناها بتقديم بولس . ومع ان مؤلف اعمال الرسل قاص جيد كلوقا الا انه كان هنا اضعف منه كثيرا كلوقا ايضا في قوة الفكرة منه في فن الادب التخييلي . ومن هذا نجد الناس الذين يغرمون بالقصص ويتجافون اللاهوت يعزون تأليف اعمال الرسل الى لوقا ايضا في حين انكر اللاهوتيون البولسيون الكتاب برمته ورموه بالزيف لان بولس وكل الرسل في الواقع ظهروا فيه وكأنهم «بعثيون» (١) مبتذلون عاديون يجتذبون اهتمامنا ويلفتون انظارنا بما لقوه من مغامرات ومفاجآت اكثر مما يجتذبونه بفضائل الفكر وبفضائل الخلق . ولولا انهم رسل لكانت فكرتنا عنهم والحق يقال هزيلة جدا . وقد وصف بولس بصورة خاصة بأنه موجد موضة ظلت شائقة دارجة الاستعمال حتى يومنا هذا ، ففي كل مرة يخاطب جمهورا تراه يسهب بحرارة عظيمة في ذكر آثامه قبل هدايته الزائفة مستهدفا القاء حالة قداسته الحاضرة الى راحة نفس اقوى عودا . انه ليفصل في حكاية تلك الهداية مرة بعد أخرى ينتهي باستنهاض همم سامعيه للانضواء الى لوائه حتى يحققوا خلاص انفسهم ويهدد بالعقاب الالهي الذي ينتظرهم ان هم رفضوا السير وراءه . واليوم تستمع الشيء نفسه من اي اجتماعي «بعثي» وترى الاهتداءات نفسها تتبعه . انه لأمر طبيعي ليس الا . غير انه لا يشبه تعاليم المسيح الذي لم يحدث الناس في خطبه عن سيرته وحياته الخاصة . ولم يعمد مطلقا الى «اصعاد» نفوس

---

١ ـ اي : المؤمنون بالعودة الى الحياة ثانية .

المستمعين الى حد الهسترة . ان هذه الاجتماعات ترمي الى التأثير على الاعصاب ليس غير ، ولا تحمل في طياتها التنوّر وإضاءة الطريق ، واعظم الناس جهلا ما عليه ألا ان ينتشي بزهوه، ويتوهم ان رضاه عن نفسه ان هو الا من روح القدس ليكون «رسولا مجازا» ولا علاقة لهذا كله مطلقا بمبادىء المسيح المعروفة. قد يكون «الروح القدس» ناشطا في كل ما حولنا ، يخلق المعجز من الفن ، والعلم ، ويقوّي من عزائم البشر ليتحملوا مختلف انواع الشهادة ، لاجل توسيع دائرة المعرفة وإخصاب الحياة ، وجعلها اكثر غنى وزخما «حتى تكون لكم حياة اكثر غزارة» الا ان الرسل كما وُصفوا في «الاعمال» تراهم لا يسهمون في هذا النضال الا بوصفهم ادوات لعنة وتعذيب ، والى يومنا هذا ، عندما تكون لخلفائهم اليد العليا كما في جنيف (١) «انظر نوكس في : مدينة المسيح المثلى» (٢) وفي اسكتلندا وأولستر ، فان كل نشاط روحي يقمعما عدا جمع المال والدوام الى الكنيسة. والزنادقة يضطهَدون اضطهادا لا هوادة فيه ، ومتع الحياة التي يبتاعها المال مثلا تمنع وتحبس الى درجة يضطر معه حائزوها الى المضي قدما في جمع المال لانه ليس ثم ما يعملون سوى ذلك . وكل التعويض الذي تناله عن هذا الحرمان هو تصورك الجنوني من جهة ، بأنك صفي الله وانك صاحب مقعد محجوز في السماء ، ومن جهة اخرى لان اكبر المفتتنين بالنفس جنونا لا يستطيع ان يقضي عمره مفتونا بنفسه ، فأقل المحرضات براءة وهي عقاب الآخرين لافتقارهم الى الاعجاب بذلك المفتون ، والتشهير بآثام الناس الذين هم بدرجة من الذكاء بحيث لا يملكون معها قدرة على معاناة الايمان الممل بكونه اقوم الناس واكثرهم تعرضا لجمال اعمال الروح القدس ونعمه .

---

١ ــ مركز الكالفينيين .

٢ ــ (١٥٠٥ ــ ١٥٧٢) مصلح بروتستانتي اسكتلندي .

حتى هؤلاء يحاولون العيش حياة اكثر غزارة وأقرب الى الواقعية. ان اللهو الكريه واعني به تخويف الاطفال بأهوال جهنم هو واحدة من أمثال تلك التسليات وربما كان أقبحها وأكثرهـــا ازعاجا . والحاصل الصافي هو ان مقلدي الرسل ، سواء اطلقت عليهم اسماء (الهولي ويللز) (١) او سميتهم (ستكنيز) (٢) استهـــزاء واستصغارا ، او (البيوريتان) (٣) او القديسين ، اعجابا وتقديرا، فهم مكروهون جدا خارج جماعتهم مثلما هم داخل جماعتهم والى مدى كبير ! على انه ليس ثم من يمقت يسوع مع ان كثيرا ممن عذب في طفولته باسمه يدخل في عداد كرهه كل ما له علاقـــة بالدين في حين تجد الآخرين الذين لا يعرفونه الا بالصورة الخلابة التي وصفت لهم ، اي بأنه مسالم رقيق العاطفة زاهد ، تراهم يدخلونه في عداد الكره العام الذي يحفظونه لامثال هذا النموذج من الشخصيات . وعلى المنوال نفسه ان الطالب الذي وجب عليه ان يحفظ شكسبير ويتدارسه في الكلية توصلا الى النجاح فـــي الامتحان قد يكره شكسبير ويمقته . وتجد الناس الذين يكرهون التمثيل المسرحي قد يحشرون موليير فـــي عداد المكروهين من هذا الصنف مع انهم لم يقرأوا منه سطرا واحدا او يشاهـــدوا مسرحية واحدة من مسرحياته . لكن ليس ثم انسان له بعـــض

---

١ ، ٢ ـ ما يدعى بـ Holy Willies او Stigginses اسمان يطلقان مزاحا وسخرية، على الاشخاص المتظاهرين بالصدق والاستقامة والترفع عن الدنايـــا والاوشاب من الناس من قصيدة روبرت برنز «صلاة هولي ويلي» ومن مستر ستكنيز وهو شخصية في رواية (اوراق مستر بيكويك) لشارلز ديكنز .

٣ ـ The Puritans هم فرقة دينية متحمسة متعصبة انشقت عـــن سائر المسيحية الانكليزية في القرن السابع عشر وناصبت كنيسة انكلترا العداء، واتخذت التوراة دليلها الاوحد .

وقوف على شكسبير او المام بموليير يستطيع ان يبغضهما أو ان يقرأ دون شعور بالالم والاستنكار وصفا او شرحا لإهانة أصيبا بها او لتعذيب كابداه ، او قتل نالاه . والقول نفسه يصدق على يسوع . غير انه يجب ان يبذل المرء اعنف ما يمكن من جهد وجداني ، ليمتنع عن الهتاف «يستأهل !» عندما يقرأ قصة رجم اسطفانس ! ليس ثم من اهتم قلامة ظفر باستشهاد بطرس فهناك اناس كثيرون هم اكثر منه صلاحا ماتوا ميتات أشنع من ميتته مثل هيولاتيمر (١) الصادق الامين الذي احرقناه . فهو يسوى خمسين اسطفانس واثني عشر بطرس ! ان المرء ليشعر اخيرا بأن يسوع بدعوته بطرس من زورق صيده ، أفسد صيادا امينا مخلصا ولم ينحت من هذا النكود شيئا يزيد عن «تاجر خلاص» .

الخلاف حول العماد والتجسد

في الوقت نفسه كانت العاقبة المحتومة لنبذ مبادىء يسوع والعودة الى يوحنا المعمدان هي ان اهتداء الوثنيين الى النصرانية بات أسهل من اهتداء اليهود اليها . ولم يصر بولس رسولا للوثنيين الا باتباع خط يمتاز بأقل المقاومة . كان لليهود فريضتهم الخاصة للتهود هي فريضة الختان . وكانوا شديدي التمسك والتقيد بها لانها العلامة الفارقة التي تدل على انهم (شعب الله المختار) وبها وحدها يتميزون عن الوثنيين الذين هم في عرفهم ذوو غُلْف (قلف) لا غير . ولما وجد بولس ان العماد يعبّد طريقه بين الوثنيين ويجعله اسرع مما هو بين اليهود لانه يسهل

---

١ ــ (١٤٨٥ ــ ١٥٥٥) اسقف انكليزي احرق حيا بتهمة الزيغ والهرطقة في عهد الملكة ماري الاولى الكاثوليكية بعد ان رفض انكار عقائده البروتستانتية .

على الآخرين الادعاء بأنهم هم ايضا مطهرون بمراسيم قررها نص ارفع مقاما واقرب عهدا من المراسيم الموسوية ، اضطر الى الاقرار بأن الختان ليس مهما . وهذا عند اليهود تجديف لا يسعهم الاغضاء عنه . اما الوثنيون امثالنا ، فعندنا اليوم ان الكثير من «الرسائل الى اهالي رومية» (١) هي مملة الى الحد الذي تتعذر معه قراءتها لانها تتضمن محاولة خائبة من بولس لتحاشي الاستنتاج بأن الرجل اذا عـُمد فلا يهم مطلقا موضوع ختانه أكان مختتنا ام غير مختتن . ويزعم بولس ان الختان شيء ممتاز بحد ذاته عند اليهودي . ولكن اذا لم يكن له اي تأثير في مسألة الخلاص ، واذا كان الخلاص هو الهدف الوحيد الضروري (وبولس يأخذ بالفرضين معا) فان دعوته الى التساهل زادت من عزم اليهود على رجمه .

هكذا وجدنا مسيحية الرسل منذ اولها تتعثر وتتفاقم مشكلتها بالخلاف الدائر حول ما اذا كان الخلاص يتم الوصول اليه بعملية جراحية ام بصب الماء ؟ وهما من قبيل الشعائر لا غير ما كان يسوع ليبدد فيها عشرين كلمة . وفي الازمنة المتأخرة عندما غزا المذهب الجديد الغرب الوثني حيث لم يكن لهذا الخلاف في الشعائر اي مجال حيوي في التطبيق العملي ، فان الفريضة الاخرى وهي «اكل الله» (٢) ولـّدت نزاعا اعظم وانكى . اذ انشأت اسبابا شنعاء مخيفة للاضطهاد والتنكيل والبغضاء والتقتيل وكل

---

١ ـ جزء من اعمال الرسل وتتضمن الرسائل التي كتبها الرسول بولس الى اهالي رومية المسيحيين الاوائل اجوبة عن استفسارات تتعلق بالدين والمعاملة.

٢ ـ اشارة الى ان تناول الخبز والخمر عند المسيحيين في أحوال دينية مخصوصة يمثل الذبيحة الالهية اي التضحية بجسد المسيح ودمه ثم اكل الضحية كما كان يجري قبله . فقد أثير موضوع معنوي وهو هل ان المادة الالهية تهضم عندما تنزل الى المعدة والامعاء كالطعام العادي وتسري عليها التحولات نفسها ؟

ما كان يسوع يشمئز منه . كان موضوع الخلاف في هذه الفريضة لا يتضمن تأدية الفريضة او عدم تأديتها . بل هل ان هضم المادة الالهية معديا هو مجازي ام حقيقي ؟ الا ان الشعبذات التي لصقت بالدين الجديد قبل هذه المسألة بزمن طويل هي التي خلقت المتاعب فولادة المسيح من العذراء (كانت في السابق تنظر ببساطة كمعجزة شائقة في مبدأ الامر) لم يتركها اللاهوتيون في بساطتها هذه وانما بدأوا يتساءلون من اية مادة كان الجنين يسوع وهو في رحم العذراء ؟ ثم لما اضيفت عقيدة الثالوث ؟ برز السؤال التالي : هل العذراء هي والدة الله أم والدة المسيح فحسب ؟ فظهرت على اثر ذلك الانشقاقات الآريوسية والنسطورية من هذين السؤالين وراح زعماء هذه الانشقاقات وغيرها يقطع (يحرم) احدهم الآخر ويقضي بحرمانه لكل حقد وفظاظة حسب حظوظ كل في اجتذاب الاباطرة كل الى صفه . وفي القرن الرابع بدأ يحرق احدهم الآخر للاختلاف في الرأي حول هذه الامور نفسها . وفي القرن الثامن جعل شارلمان الديانة المسيحية اجبارية بقتله كل من يأبى اعتناقها . ومع ان هذا كان ختاما للهداية الاختيارية الى الدين فمن حق شارلمان ان يفخر بأنه اوّل مسيحي كان يأمر بقتل الناس بسبب نقطة جوهرية في العقيدة حقا . وابتداء من عصره فصاعدا آض تاريخ الصراع المسيحي مخضبا بالدم مشتعلا بالنار ، مثقلا بأوضار التعذيب والحروب ، كالحروب الصليبية والاضطهادات الالبيجية (١) وما اليها ، وكمحاكم التفتيش والحروب الدينية التي عقبت الاصلاح كلها تبدو ظاهرة مسيحية عادية . لكن ليس ثم فينا من يشك في ان يسوع كان سيشجبها مستفظعا مشمئزا . ان فكرتنا الخاصة حول مذبحة سان بارثولوميو (٢) تقول بأنها انتهاك لحرمة الدين

١ ـ طائفة دينية نبغت في القرن ١٣ حتى ١٤ في جنوب فرنسا . اضطهدتهم الكنيسة الكاثوليكية وقضت عليهم .

٢ ـ هي مذبحة البروتستانت في فرنسا .

المسيحي ، في حين ان حروب غوستاف ادولف (١) بل
قولنا ان حروب فردريك الاكبر انما هي دفاع عنها ، له
فكرة سخيفة بمستوى سخف الفكرة المعاكسة القائلة بأن فر
هذا ، كان ضد اليسوعية نظرا للمسيح وتوركوماد
واغناطيوس ليولا رجلان يماشيان ذوق يسوع تماما ! ه
الناس وأعمالهم لا تربطها اية علاقة بيسوع . ومن المحتم
لود رئيس الاساقفة وجون ويزلي ماتا وكلاهما مقتنع ب
ذاك الذي باسمه جعلا نفسيهما مشهورين على الارض ، سيت
بذراعين منبسطتين في السماء ! ان جورج فوكس الز
الكويكري كان عنده عشرة امثال ما كان عندهما من حظ
هذا فقد جعل من حباته عملا بائسا حقيرا لا يسوى شروى ن

مهما يكن من امر فكل هذه الانحرافات في دين يسو
استمدت قوتها الادبية من رصيده ، وكان عليها والحالة ها
تبقي انجيله حيا . عندما ترجم البروتستانت التوراة الى ا
العامية واطلقوه سائبا بين الناس ، اقدموا على عمل في غا
الخطورة كما برهن عليه الضرر الذي تلا ذلك . على انهم ب
هذا اطلقوا اقوال يسوع تصول وتجول في مباراة حرة مع
مع اقوال بولس والكوهيلت (٣) وداود وسليمان ومؤلفي
ايوب وكتاب اسفار العهد القديم الخمسة الاول (٤) ولقد
كيف بدا يسوع الاسم الفائز عليهم . ان التناقض الصار
تطبيقات كل الدول والمذاهب ، وبين تعاليمه لم تعد سرا مك
ومع ان تسعة عشر قرنا مرت على ولادة يسوع (من المستفر
يُزعم تاريخ ميلاده في السنة السابعة ق.م مع ان بعضهم
انه جاء في السنة ١٠٠ ق.م !) ومع ان كنيسته لم تقم ب

١ ــ ملك السويد .
٢ ــ رئيس محاكم التفتيش في القرن الخامس عشر .
٣ ــ اسم عبراني للحكيم الذي ذُكرت تعاليمه في سفر الحكمة من التو
٤ ــ وهي : سفر التكوين ، والخروج ، والاحبار ، والعدد ، والتثنية الاش

ونظامه السياسي لم يوضع موضع تجربة حتى الآن ، فان افلاس كل الانظمة الاخرى عندما جرى تدقيقها على ضوء احصاءاتنـــا الرئيسة الجوهرية ، انما تدفعنا دفعا لا هوادة فيه الى قبوله لا بوصفه كبش فداء بل بوصفه أقل بكثير من ساذج في المسائل العملية مما كان الجميع يظنونه الى حد الآن .

ما هو بديل المسيح ؟

الا دعنا نوضح موقفنا قليلا . يقص العهد الجديد حكايتين لنوعين مختلفين من القراء : اولاهما القصة القديمة عن تحقيق خلاصنا بالتضحية والكفارة التي قدمها الإله المذبوح ذبحا بربريا والمبعوث ثانية في اليوم الثالث ، وقد قبلها الرسل على علاتها . ولم يكن فيها اية اهمية لآراء المسيح السياسية والخلقية ، فالفداء فيها كل شيء ونحن نحقق خلاصنا بمجرد ايماننا به لا بالاعمال او الآراء القائمة على الامور الواقعية المخالفة لراي الفداء نفسه .

اما ثاني الحكايتين ، فهي قصة ذلك النبي الذي غم على عقله وجنّ بعد ان عبّر عن عدة افكار هامة بخصوص السلوك العملي (الشخصي منه والسياسي ذي الاهمية القصوى في يومنا هذا) وبعد ان أمر رسله بالتمسك بهذا السلوك في حيواتهم اليومية ، ثم توهم نفسه انه شكل أسطوري خام من اشكال الله . واندفع بتأثير هذا الوهم باحثا عن مينة قاسية ، فتجرع آلامها معتقدا انه سيقوم من بين الاموات ويأتي ممجدا ليتربع عرش الحكم في دنيا جديدة. فبهذا الشكل نجد آراء يسوع السياسية والاقتصادية والخلقية ذات اهمية وامتاع بوصفها مرشدا ودليلا الى السلوك. اما ما تبقى فهو مجرد اوهام وتخريف . اما روايـــات القيامة ، والولادة من العذراء والمعجزات التي تفوق غيرها في صعوبة الايمان بها فقد نبذت كلها واطرحت جانبا بوصفها مجرد تلفيق .

السذاجة ليست مقياسا

هذا القبول الاعتباطي ، والرفض الاعتباطي لاجزاء من الانجيل ليس غريبا من وجهة النظر الدنيوية . ولقد رأينا لوقا ويوحنا يرفضان حكاية متى عن مذبحة الاطفال والهرب الى مصر رفضا لا توجس فيه ولا حذر . اما القول ان مخطوطة متّى هي سجل حرفي دقيق للوقائع لا يرقى اليه الشك ولا يخضع لاي من الاخطاء التي لا يخلو منها كل مؤرخي هذا العالم ستجعل يوحنا يبحلق بعينيه مذهولا غير مصدق . فهو الى حدّ ما خيال عصري يستهوي اناسا ناقصي التدريب ثقافيا ، ممن يضعون التوراة على نفس الرف الذي يضعون فوقه كتاب (حظوظ نابوليون) و(تقويم مور القديم) و(مختصر طرائق العلاج بالاعشاب الطبية) (١) . قد تكون (خلاصبا) متعصبا ونرفض من حكايات المعجزات اكثر مما رفضه هكسلي (٢) وقد ترفض يسوع رفضا مطلقا بوصفه (مخلّصا) ومع ذلك فانك تستشهد به وتتخذه دليلا تاريخيا على احراز البشر اعجب القوى لصنع المعجزات «المسيح العلمي» (٣)

---

١ ـ هذه هي عناوين كتب صنفت لاناس يؤمنون بالخرافات وهي كتب طوالع وفأل او وصفات طبية تؤخذ من اعشاب وانبتة عادية تعزى اليها قوى شيطانية عجيبة .

٢ ـ T.H. Huxley (١٨٢٥ ـ ١٨٩٥) كاتب انكليزي في مواضيع فلسفية ودينية وعلمية يصف نفسه بالغنوصية . اعني بذلك الذي اقتنع بانه لا يمكن التوصل الى (معرفة : Gnosis) اي شيء عن وجود الله او عدم وجوده بشكل مادي محسوس ، وخير كتبه هو « مكانة البشر من الطبيعة » Man's Place in Nature كتبه في ١٨٦٣ .

٣ ـ وهي ما يطلق عليه Church of Christ Scientist

ويسوع الهاتما انما يبشر بــــه من كان بطرس سيصعقهم موتى لانهــى اعظم كفرا والحادا من شمعون الســاحــر العظيم ، والآلام (الكفارة) يعظ بها الكهنة المعمدانيون جماعة المؤمنين الذيـــــن لا تختلف وجهة نظرهم في الاعاجيب عن وجهات نظر انغرسول(١) وبرادلو (٢) . ان لوثر الذي كنس القديسين كنسا مع ملايين من معجزاتهم ، وانزل العذراء المباركة نفسها الى مقاموثن من الاوثان، ركز عقيدة الخلاص تركيزا جعل معه شر القتلة ، واشنع السفاكين يسقطون راسا بين ذراعي يسوع اذا هم آمنوا بها وحبل المشنقة ملتف حول اعناقهم في حين يسقــط تــوم بين وشللي فـــي حفرة لا قعر لها ليحترقا هناك الى دهر الداهرين . والطبيعيون الملحدون امثال سر وليام كروكس يبرهنون بمساعدة التجاريب المختبرية ان وسطاء الارواح من أمثال دونكلاس هوم يستطيعون ان يجعلوا مؤشرا في ميزان حلزوني يدور دون ان يلمس الثقل المتدلي منه !

الايمان بالخلود الشخصي ليس معيارا

حتى الايمان بخلود الفرد ، فهـــــو ليس معيارا قط . ان

---

١ _ Robert Green Ingersoll (١٨٣٣ _ ١٨٩٩) كاتب امريكي تقدمـــي داروينى النزعة وقانوني ومحام حمل على حرفية التوراة والاناجيـــل وانتقدهما انتقادا شديدا على ضوء المنطق .

٢ _ Charles Bradlaugh (١٨٣٣ _ ١٨٩١) مصلح اجتماعي انكليزي ، ومن مشاهير العقلانيين . انتخب عضوا للبرلمان في (١٨٨٠) لكن لم يسمح له باحتلال مقعده البرلماني لرفضه اداء القسم الديني التقليدي بالاخلاص .

الثيوصوفيين الذين يرفضون الفداء بالاستنابة رفضا شديدا ، ويصرون بأن أصغر آثامنا تأتينا بما يدعى ال(كارما) (١) الخاصة بها، كذلك تراهم يصرون على التناسخ وخلود الروح الانسانية حتى يعدوا ميدانا لا حدود له للكارما ليصل اليها الخاطىء الذي لم يتم خلاصه . ان الايمان بدوام حياة الانسان بعد ان يسجى في القبر ، لهو اعتقاد اقرب الى الحقيقة عند مستحضري الارواح بطريقة المائدة مما هي عند المسيحيين العاديين . والفكرة القائلة ان أولئك الذين يرفضون المشروع المسيحي او اي مشروع غيره حول الخلاص عن طريق الفداء يجب ان يرفضوا ايضا الايمان بخلود الانسان وبالمعجزات بوصفهما امرين لا يستندان الى الواقع كالفكرة التي تقول : اذا كان المرء ملحدا فانه سيسرق ساعتك !

في مقدوري ايراد تشابه من هذه الامثال الى حد اصابتك بالملل . والاختلاف الاساسي لم يكن الاختلاف ما بين الايمان بالكائنات الفائقة للطبيعة والحوادث الخارقة للعادة ، وبين الراي الاكثر تزمتا للايمان ، الذي ينظر الى الايمان بوصفه اهدارا لقيم السلامة الفكرية . انه الاختلاف بين قوة فاعلية عملية «الصلب» بوصفها دواء لا يخطىء في معالجة الخطيئة وبين عجز فطري عن فهم هذا ، او عن الرغبة في الايمان به وهو عين الشيء .

النظرية العلمانية طبيعية وليست عقلية فهي لهذا ، حتمية

علينا اذن ان نأخذها حقيقة جوهرية صريحة ، رغبنا في ذلك

---

١ ـ الكارما Karma وهي نوع من الثيوصوفية (تقدم شرحها) عقيدة هندوسية بوذية تقول ان الاشكال (الحالات) التي يتخذها الوجود البشري بالتعاقب ترتفع وتنحط بالنسبة الى صلاح الشخص او فساده في مراحل حياته السابقة .

ام كرهنا . فكما ان كثيرين منا لا يسعهم الايمان بأن يسوع حكَم قبضته القريبة ، على أرواحنا بطريقة العاطفة والمشاعر لا غير . كذلك لا يمكن ان نصدق بأنه كان (جون بارلي كورن !) وكلما كان عقلنا ودراستنا يؤديان بنا الى الاعتقاد بأن يسوع انما كان يتكلم بأعمق الآراء والافكار السليمة عندما يبشر بالشيوعية ، وعندما يصرح بأن الحقيقة التي تكمن وراء الايمان الشائع بالله ، انما هي الروح الخلاقة المستقرة في انفسنا والتي سمّاها هو (بالأب السماوي) وسميناها نحن (بالارتقاء) او بالقوة الفاعلةالحية Elan Vital وغيرها من الاسماء . وعندما احتج يسوع على ان الزواج والاسرة يسلبانا ذلك الجزء السامي من حيويتنا التي قصد بها خدمة ابيه السماوي ، نقول كلما أدى بنا عقلنا ودراستنا الى هذه النتائج ، وكلما تعذر علينا الاعتقاد بأنه كان يتكلم بسلامة تفكير عند اعلانه بتلك الصورة المفاجئة عن نفسه بأنه هو اللــه بالذات متجسدا ، وان لحمه ودمه هما الطعام العجائبي الــذي يجب ان نتناوله ، وانه سيقوم من بين الاموات بعد ثلاثة ايام وان النجوم ستتساقط من السماء عند مجيئه الثاني وسيملك علــى فردوس ارضي . ولكن من السهل المعقول ان تعتقد باحتمال‌اصابة مرهق الاعصاب بالجنون كما أصيب سويفت ونيتشه ورسكِن . ولكل بيمارستان نزيله الذي يعاني من وهم كونه إلها ، في حين انه انسان عاقل فيما عدا هذه الفكرة . نزلاء المارستانات هؤلاء لا يصرحون بأنهم سيُقتلون قتلة شنعاء ويقومون من بين الاموات. ذلك لانهم لا يملكون التقليد القديم القائل «بالمصير الإلهي» على انهم يزعمون لانفسهم كل ما يتعلق بالالوهية مما يقع في حدود معرفتهم . وهكذا فالاناجيل التي هي كمذكرات وخواطر موحية لعقيدة بيولوجية واجتماعية وثيقة الصلة جدا بالمدنية الحديثة ، وان انتهت بتأريخ لوهم مرضي ، فهي والحالة هذه ، مفهومــة معقولة مشوقة للمفكر العصري . على انها غير مفهومة ولا معقولة تحت اي ضوء آخر تضعها ، الا لدى أناس يفرض الوهم نفسه عليهم فرضا .

الفصل العاشر

النقد الاعلى

سيواصل علم نقد الكتابات الغابرة ، والابحاث التاريخية دون الشك ، البرهنة على ان الاناجيل هي كالعهد القديم قلّما اوردت حكاية فريدة في بابها ، او شرحت مبدأ فريدا في بابه . وان هذين السفرين كثيرا ما يقدمان لنا استطرادات ، واخلاطا من تقاليد وعقائد لا يجمعها جامع ، ولا تشدها رابطة قط . هذه الثغرات وان كانت من الناحية التكنية تسترعي اهتمام الباحثين وترضي او تسخط (حسب كل حالة) الناس الذين يدافعون او يهاجمون التحصينات الورقية ! لعصمة التوراة ، وتنزهها عن كل نقد ، فانها تكاد تكون بعيدة تماما عن الغاية التي ارمي اليها في هذه الصفحات . لقد ذكرت ان معظم المرجعيين والثقاة يتفقون الآن على ان تأريخ ميلاد يسوع يمكن تثبيته في حدود السنة التي اعطيناها رقم ٧ ق.م حسب التقويم الميلادي . الا انهم لا يؤرخون

رسائلهم بناء على ذلك بالسنة ١٩٢٢ م (١) ولا اظنهم يتوقعون مني ان افعل ذلك . فما انا في سبيله الآن هو نقد بمفهوم الكانتية للشكل الثابت من الاعتقاد الذي بات جزءا فعليا من نسيج قرائي العقلي . ولأكونن من أشد العابثين والذيليين ازعاجا اذا عمدت الى الانحراف نحو انتقاد عقيدة أخرى او «لا عقيدة» قد يتخيل قرائي انهم مؤمنون بها لو كانوا من المؤرخين او الباحثين الواسعي الاطلاع في مخطوطات العهد القديم . وفي هذه القضية ، والشيء بالشيء يذكر — كان عليهم ان يبتذلوا آراءهم كثيرا والى درجة وجب ان يستحوذ الانجيل الذي تدارسوه في صغرهم ، على افكارهم ويملك مذاهبهم ، باستمراريته الفائقة الحدود . ان فوضى الوقائع المجردة في «الموعظة على الجبل» و «صفات الاحسان» (١) اللذين لا يوحيان ولا يثيران الا خلافا حول ما اذا كانتا اضافتين الى الاصل ام هما جزء من الاصل ؟ وفي ان يغدو يسوع فهو مجرد اسم يشك في انه يعود الى عشرة انبياء مختلفين او اشخاص تم تنفيذ حكم الموت بهم . وفي ان يكون بولس الرجل الوحيد الذي تستبعد كتابته سفر (اعمال الرسل) المعزو اليه ، وفي ان نحشى على رؤوسنا ما كتبه حكماء الصين وفلاسفة اليونان ومؤلفو اللاتين وكتاب النقوش الكتابية القديمة المجهولة المصدر ، بوصفها مصادر هذا السقط من التوراة او ذاك وكل هذا ليس بالدين في شيء ، ولا هو بنقد للدين كذلك . ان المرء لا يمكن ان يتأكد — بمثابة حقيقة واحدة — ان جزءا كبيرا من بناء

---

١ — لما كان شو قد كتب افكاره هذه في ١٩١٥ ، فهو يضيف اليها السنوات السبع التي افترضها ناقصة عن التاريخ الميلادي .

٢ — الموعظة على الجبل في متى (فصل ٥—٧) وفي لوقا (فصل ٦) . اما عن صلاة الصدقة فهي في الفصل ٦ من متى .

كاتدرائية بيتر بورو سيء العمارة ، وان المواد التي استخدمت في بنائه غير جيدة ، كما يستطيع مثلا انتقاد مواعظ الاسقف . اننا جعلنا من الاثر الادبي الذي نسميه التوراة ضدا منافسا ، اخيرا كان عملنا أم شرا . ومع ان اكتشافك الكثير من البناء الزائف الواهي في جسم التوراة هو عمل شيق بحد ذاته (لان كل ما يدور حول التوراة هو شيق) فان ذلك لا يغير «ضد النقيض» (١) تغييرا ماديا كبيرا حتى عند علماء المخطوطات القديمة ، كما لا يغيرها ابدا في نظر أولئك الذين لا يعرفون عن علم المخطوطات القديمة اكثر مما يعرفه رئيس الاساقفة أوشر (٢) ولذلك تجدني قد اشرت الى قدر من المستكشفات يزيد قليلا عما قد يستطيع رئيس الاساقفة اوشر التوصل اليه لو قرأ التوراة دون تحيز .

وللباقين تناولت ذلك «النقيض» كما يعيش ويعمل في الناس فعلا . ومهما يكن فالنقيض هو ما تريده انت : انه القضية التي يترتب عليك أن تحكم عقلك فيها . وقد وصلت الى موضوع يسهل عليك ادراكه . وحتى لو كان احترامك للسيّر المصطنعة اكثر قليلا من احترامك للمطاط الاصطناعي والحليب الاصطناعي مما سيجعلنا نصنع مختلف انواع البشر كما يصنع الحلوائي مختلف انواع الكعك ، فان الموضوع الحيوي العملي ما زال مطروحا امامك بالوضوح الذي طرح امام معظم العباد السذج وهو ما يصفه كبار الاحبار «بالنقد العالي» .

---

١ ــ وهو ما يدعى بالديالكتيك Synthesis .

٢ ــ James Ussher (١٥٨١ ــ ١٦٥٦) رئيس اساقفة ارماغ في ايرلندا . واضع نظرية مؤداها ان تاريخ الخليقة يبدأ في العام ٤٠٠٤ ق.م. هذا التاريخ قبله عدد كبير من المسيحيين بعد موته . الا ان الابحاث الجيولوجية ما لبث ان دحضت مزاعمه واثبتت ان بدء الحياة على الارض يعود الى اكثر من مليوني سنة .

مخاطر عقيدة الخلاص

ان النظرة العلمانية في يسوع تتعزز تعزيزا قويا في ايامنا هذه بزيادة عدد الاشخاص الذين يملكون وسائل لتدريب انفسهم وتعليمها الى الحد الذي لا يعودون معه يخشون النظر الى الوقائع دون وجل حتى تلك الوقائع المخيفة كالخطيئة والموت . والنتيجة هي زيادة القسوة والصرامة في الفكر الحديث . لقد اخذ ينتشر كثيرا الاعتقاد بأن باستطاعته ان يجعل ذنوبه اشد بياضا من الثلج بالغ ما بلغت من الاحمرار بممارسته رياضة بسيطة : هي رياضة الاعتزاز بالنفس . هذا الاعتقاد يتضمن تشجيعه على ان يصير نذلا وغدا . والنتيجة لا تكون سيئة جدا ان استطعت ايضا التأكيد له وجدانيا بأنه لو ترك نفسه تؤخذ على حين غرة بالموت قبل ايمانه ، فان جهنما حمراء سنشويه شيًا ، وهو حي الى أبد الآبدين ! في تلك الايام الخالية كان موت الغفلة وهو خير ما يُحسد عليه المرء من الميتات ، يعتبر من افظع الرزايا التي تحل بالانسان . هذه الميتة كانت توضع في صلواتنا بين قائمةالكوارث كالطاعون والوباء والمجاعة والحرب ، والقتول . الا ان الاعتقاد بمثل (جهنم) هذه اخذ يتلاشى بسرعة ، وقد تخلص منه كل قادة الفكر ووصل ذلك الى العامة وتفشى فيهم وهرب هذا النوع من الايمان الى تلك الاجزاء التي ما زالت تعيش في جو القرن السابع عشر ، من ايرلندا واسكوتلندا . حتى هناك ، فان المفهوم الضمني لهذا الاعتقاد هو انه من شؤون شخص آخر لا من شؤونك انت !

اهمية جهنم في مبدأ الخلاص

ان جدية التخلي عن فكرة جهنم والتشبث في الوقت نفسه بالفداء ، هي مما لا سبيل الى نكرانه . ان لم يكن ثم عقاب على

لاثم فليس في الامكان ان نكون هناك جهنم وبالتالي ليس ثم اية فرصة في معاناة المشاق والمتاعب بنسيان الواجب ، اذ بامكاننا والحالة هذه ان نكون اشرارا بقدر ما نرغب مع حصانتنا حتى من تأنيب الضمير ولوم النفس الذي يصبح مجرد انكار لطيف لسنتة (الفادي) . وهي الحصانة التي يضمنها لنا القانون الوضعي . ومن جهة أخرى : لو لم يدفع المسيح عنا الحساب فان هذا الحساب سيظل في ذمتنا وفي أعناقنا . ومثل هذه الديون تجعلنا غـــير مرتاحين الى اقصى حد . ان الاندفاع الى «الارتقاء او التحول» الذي نسميه بالضمير والشرف يتوازن على هذه المزالق فيصيبنا بأعظم الخجل لاننا انحططنا الى مثل هذا الدرك بحيث اجترأنا على اتيانها . ان اللص الذي «نال الخلاص» (١) ، خالجه فرح غامر لا يمكن ان يخالج الملحد المستقيم السيرة ، مما يغريه بمعاودة السرقة ليتكرر عنده هذا الشعور الرائع بالفرح . لكن لو سرق الملحد فلن يتكون لديه متل هذه السعادة : انه لص وهو يعلم بأنه لص وليس ثم ما يمكن ان يزيل تلك الصفة عنه ، وقد يحاول ان يخفف من شعوره بالعار بنوع من التعويض المادي او بممارسة عمل من اعمال الخير يقابله ، الا ان ذلك لا يغير من الحقيقة وهي انه قام بارتكاب جريمة السرقة ولن يرتاح له ضمير حتى يتغلب على ارادته في السرقة وينقلب انسانا مستقيما بتطوير الشرارة الالهية في داخله ، تلك الشرارة التي أصر يسوع على انها حقيقة مستمرة يومية وهذا ما يرفضه الملحد .

ومع إن حال المؤمنين بوجود عقيدة الفداء قد تكون أفضل ، الا انها بالتأكيد ليست بالمرغوبة من وجهة نظر المجتمع . ان مسألة

---

١ — يقصد (لص اليمين) الذي آمن وهو مصلوب مع يسوع فقال له يسوع : «اليوم ستكون معي في الفردوس» .

كون المؤمن اكثر سعادة من الشاك ليست اصدق من حقيقة كون السكران اكثر سعادة من الصاحي . وسعادة الايمان الساذج هي من الفضائل الرخيصة والخطرة، وهي ليست ضرورة من ضرورات الحياة مطلقا . ان موضوع نيل سقراط سعادة من الحياة بقدر ما ناله ويزلي أنما هو موضوع مشكوك فيه . الا ان وطنا كل اهله يشبهون سقراط قد يكون اكثر امنا واسعد حالا من وطن كل سكانه يشبهون ويزلي . وسيكون افراده اعلى درجة في سلم الارتقاء . وفي جميع الاحوال فان آمالنا الآن تتركز في الرجل السقراطي وليس في الرجل الويزلي .

الحق في رفض الفداء

وبناء على هذا ينبغي لنا ان نقطع ما بيننا وبين الايمان بالفداء وان كان ممكنا عقليا بالنسبة الينا جميعا ، وان حقنا في هذا واضح . فلكل من يعرض عليه «الخلاص» حق طبيعي ثابت غير مجزأ في القول : «كلا وشكرا ، اني أفضل الاحتفاظ بمسؤوليتي الادبية كاملة ! وليس بالذي يصلح لي ان اكون قادرا على ان احمّل كل آثامي ظهور كباش فداء . اذ سأكون أقل حذرا في ارتكاب تلك الآثام عندما اعلم انها لن تكلفني شيئا» . ثم هناك موقف إبسن ايضا ذلك الاخلاقي الذي قدّ من الحديد . ففي رأيه ان مبدأ الخلاص بأسره ، ان هو الا محاولة جنسية لخداع الله . اعني دخول الجنة مجانا دون دفع الثمن . ان يُصفح منك ... ان تسترحم فتفوز بالحياة الابدية كهدية ، بدلا من ان تكدح وتعمل في سبيلها ، لهو امر بدرجة كبيرة من الوضاعة ، حتى عند قبولنا سخرية تلك القوى التي نقايض نحن برحمتها علينا . اما المساومة على تاج من المجد فوق كل هذا ! فهو مما لا يستطيع إبسن احتماله ، ويستفزه الامر فيصرخ قائلا : «ان الهك

رجل شيخ وانت نقوم بغشه» ثم يهوي ضربا بسوط مجدول من العقارب (١) على ضمير القرن التاسع عشر الميت ليعيده الى الحياة .

تعاليم المسيحية

وهنا ينبغي لي ان اترك الامر الى الاختيار الذي يهفو اليه طبعك . ان المعلم المستقيم الذي يترتب عليه ان يعرّف التلميذ المستجد بالحقائق عن المسيحية لا يستطيع حسب ظني ان يضع الوقائع بشكل يختلف عن الشكل الذي وضعتها به فوق اي اعتبار جوهري . واذا كان واجبا عليه انقاذ الاطفال من الملحد المهتدي من جهة ، ومن الراهبة المهتدية في مدرسة الدير من الجهة الاخرى فضلا عن جميع الوعاظ المستقرين فيما بين هذين الحدين، فمن الواجب ان لا يثقلوهم بالمتناقضات غير المجدية من امثال التساؤل : أوجد شخص باسم يسوع أم لم يوجد ؟ عندما قال هيوم بأن حروب ايشوع غير ممكنة فان (ويتلي) لم يجادل في ذلك وبرهن بعين الطرق التي اتبعها هيوم بأن حروب نابوليون هي الاخرى غير ممكنة ! ان الشخصيات الخيالية وحدها هي التي يمكن ان تصمد امام الاختبارات الشبيهة باختبارات هيوم وليس ثم ما يمكن ان يجعل (ادوارد المعترف) و(القديس لويس) شخصين حقيقيين لدينا كما كانت شخصيتا دون كيشوت ؟ ومستر بيكويك . علينا ان نضع حدا للملاحاة والمناقشة

---

١ ــ سفر الملوك الاول الفصل ١٢ : «أبي عاقبكم بالسوط ، وانا اعاقبكم بالعقارب » .

٢ ــ انظر سفر الخروج وسفر يشوع في التوراة .

بالتصريح بوجود شواهد على وجود يسوع قدر ما يوجد على اي شخص كان معاصرا له . اما وانك قد لا تصدق بكل ما يحدثك متّى ، فهذا لا يدحض وجود المسيح اكثر من دحض حقيقة انك لا تؤمن بأن كل ما يحدثك ماكولي انما ينفي وجود وليم الثالث . وحكايات الانجيل بالاساس ، تقدم لك سيرة حياة قابلة النصديق وممكنة التعليل على أسس علمانية صرفة . بعد نقليم كل ما رفضه الاخوان هكسلي او هيوم او غريم او روسو واعتبروه خياليا ، وقبل ان نمضي في دربنا اكثر مما مضينا اقول : بامكانك ان تغدو تابعا ليسوع مثلما يكون في وسعك ان تغدو تابعا لكونفوشيوس ولك والحالة هذه ، ان تدعو نفسك باليسوعي او حتى بالمسيحي ان كنت مؤمنا (وهذا من حق اي علماني متمسك بعلمانينه) بأن كل الانبياء ملهمون من الإله ، وان كل ذي رسالة من البشر هو مسيح .

وعلى المعلم المسيحي بعد هذا ان يعرّف الطفل بنتبد (جون بارلي كورن) وبالحقول وفصول السنة بوصفها شواهد على حقيقته الخالدة ، ثم وبمراحل تكامل نضوج عقل الطفل (١) . يستطيع تعلم مبادىء (الفداء والهداية والخلاص والقيامة ، والمجيء الثاني) كظواهر تاريخية وسايكولوجية وكيف ان يسوع في دنيا مشبعة بهذه المبادىء ــ قد قبل في معظمها بوصفه المسيح المنتظر منذ زمن طويل . ويسمح للطفل ايضا ان يقبل ب «الفادي» الذي كثيرا ما تنبأ الانبياء بمقدمه . اما اذا كان كيانه قد بنيْ مثل كيان غلادستون فانه سيقبل يسوع كمخلّص له ، وسيقبل ببطرس وبيوحنا المعمدان أولهما بوصفه كاشفا

---

١ ــ كلمة الطفل Child التي يستخدمها شو هنا لا تعني «الطفل» حرفيا وانما تعني ابناء البشر الصالحين او الطالحين الذين يعتبرون «اطفالا» للمسيح.

لحقيقة المسيح وثانيهما بوصفه ممهدا سبيله . اما اذا كان بناء الطفل مثل بناء هكسلي فسيعتنق النظرة العلمانية رغم انـــف الاسرة الورعة التقية ، وبصرف النظر عن كل ما تفعله للحيلولـة دون ذلك . والامر المهم الآن ، هو ان لا يبدد الغلادستونيـــون والهكسليون اوقاتهم بعد الآن في المجادلة السخيفة حول خنازير الجدريين وان عليهم ان يقرروا بخصوص صحة المبادىء العلمانية التي جاء بها يسوع ، فهم حول هذه المبادىء يتصارعون فـــي عصرنا هذا .

المسيحية والامبراطورية

ونتساءل اخيرا ، ما الذي حدث للخرافات القديمة حتـــى فقدت ماء وجهها بمثل هذا التشكل المفاجـىء بحيث ان القوانين التي بها يتمكن المضطهِدون ان يدمروا ويكمموا أنفاس حرية الفكر والقول في هذه المجالات (وهو مصدر اعظم الخزي والعار لقادة الوطن وزعمائه) ظلت كما هي غير معدلـــة ، مهيأة للاستعمال . مشرعة كالسيف بأيدي غاصبينا ومتزمتينا (قبل مدة قصيرة جدا حكم على صاحب حانوت محترم بجريمة الكفر والتجديف لانه قال : «اذا برزت فتاة العصر حملها سفاحا بقولها انها حبلت بروح القدس ، فعلينا ان نعرف ماذا نستنتج !» وهي ملاحظة ما كانت لتخطر بباله لو علم كيف أقحمت الحكايةكلها على الانجيل اقحاما. ومع هذا فهي تستخدم بشكل ما ضد الفقراء . انها لتستخـدم بشكل يفتقر الى الحماسة ، وعندما نتأمل بأن ثمانية قرون مضت وانقضت منذ ان تجرأ اول الباحثين على الهمس بسر مهنة له وهو ان اسفار التوراة الخمسة الاولى لا يمكن ان يكون كاتبها موسى حتى قال اسقف كولينزو (١) ان لم تخنّي الذاكرة ــ الشيء نفسه

١ ــ احد الكتاب الدينيين . هوجم لنقده اجزاء من التوراة . وعزل ثـم أعيد الى منصبه .

علانية فمنع من الوعظ ثم حرمته الكنيسة . ان النقطة التي يدور حولها البحث وان كانت تقنياً هامة بالنسبة لعلماء المخطوطات القديمة والمؤرخين الا ان تأثيرها على سعادة البشرية لا يزيد عن الخلاف حول : هل ان الكتابة «الإنشية» اقدم شكل للخط ام هي الكتابة «الكوسية» (٢) ومع مرور هذه المدة بل وبعد خمسين سنة على زندقة اسقف كولينزو لم يعد هناك رجل دين او اي مرجع من الاحياء او اي مدني مثقف يستطيع التصريح دون ان يتعرض للسخرية ـ بأن موسى كتب الاسفار الخمسة مثلما كتب باسكال افكاره ودوبنيه تاريخه عن الاصلاح الديني ، او كتابة القديس جيروم الفقرة الخاصة بالشهود الثلاثة في الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس او ان هناك لا اقل من ثلاث روايات مختلفة عن الخليقة خبطت بعضها ببعض خبط عشواء في سفر التكوين . واليوم فان اشد التقدميين جنونا لا يسعه ان يجادل في تقدمنا بسبل الحكمة والتحرر اللذين بلغا في نصف القرن المنصرم اعظم مما بلغاه من مراق في غضون ستة عشر بضعا من القرون التي سلفته : صحيح انه قد يكون من الاسهل تأييد الافتراض بأن السنوات الخمسين الاخيرة شهدت رد فعل ماحوظ من التحرر الفكتوري الى الجماعية الاشتراكية التي مكنت مذاهب الدولة (٢) وقوتها بشكل واع ، ومع هذا فقد بقيت

---

١ ـ Cursire , Uncial هما نوعان من الخطوط الكتابية استخدما في تدبيج الكتب القديمة . اولهما شبيه بالاحرف الحديثة الكبيرة «كابيتال» اما الثاني فهو الخط السريع المائل المتصلة احرفه وهو اقرب الى خط اليد الحديث.

٢ ـ يقصد شو بمذاهب الدولة هنا ، المذاهب التي تعترف بها السلطة المدنية رسميا وتتفق معها مبادىء واجتماعا وسياسة فتتعاون معها .

الحقيقة قائمة وهي ، بما ان «قايين» بايرون (١) المطبوع قبل قرن مضى كان التجربة الرائدة في نقطة عدم وجود حقوق طبع في كتاب تجديفي فان جمعية جيش الخلاص قد تدخله اليوم في عداد مطبوعاتها دون ان تصيب احدا بصدمة .

واني اميل للقول بأن الاسباب التي وطأت لمثل هذه التنقية الفجائية للجو تتضمن تغيير كثير من الدول الحديثة . وأخص منها بالذكر ، الجمهورية الفرنسية المكتفية بذاتها وجزيرة بريطانيا الضيقة الرقعة الصغيرة وتحويلها الى امبراطوريات تغمر حدود كل البيع . في الهند مثلا يوجد أقل من اربعة ملايين مسيحي بين السكان الذين يبلغ تعدادهم ثلاثمائة وواحد وستين مليونا ونصف مليون وملك انكلترا هو حامي حمى الايمان ولكن اي ايمان هو المقصود الآن ؟ ان سكان هذه الجزيرة على حد ما يذكره الاشخاص الذين ما زالوا احياء ، قد ادعوا ان دينهم هو دين الله وان البقية كلهم زنادقة ولكننا نحن سكان الجزيرة لا يزيد عددنا عن خمسة واربعين مليونا واذا اعتبرنا انفسنا مسيحيين جميعا فما زال ثم سبعة وسبعين مليونا من المسلمين في الامبراطورية . أضف الى هؤلاء الهندوس والبوذيين والسيخ والجاين أولئك الذين لقنت فى طفولتى عن طريق التعليم الديني ـ اعتبارهم من اعظم الوثنيين المشركين الذين قضي عليهم بالهلاك الابدي . الا اني قد اتعرض للعقاب اليوم لو اني حططت من قدر دياناتهم بكلمة فيها استفزاز ، ولديك ما يزيد مجموعه العام عن ثلاثمائة واثنين واربعين مليونا وربع مليون ، منهم والشيء بالشيء يذكر ستة آلاف فحسب يطلقون على انفسهم بصورة دؤوبة اسم تلاميذ

---

١ ـ مأساة شعرية كتبها الشاعر الانكليزي لورد بايرون وهي تحكي قصة مقتل هابيل على يد قايين .

المسيح والباقون هم اتباع كنيسة انكلترا وطوائف اخرى تلمذتهم للمسيح اقل من اولئك ظهورا وثباتا . ومجمل القول ان انكليزي اليوم بدلا من ان يكون عملا مواطن دولة مسيحية بكليتها مثلما كان أسلافه الذين يتمسك حاليا بآرائهم ، تجده في الواقع منحصرا جدا في زاويه من الامبراطورية حيث يؤلف المسيحيون فيهـا أحد عشر بالمائه من مجموع السكـان لا اكثر . وهكذا فـان «المنشق» (١) الذي يفضل ان يباع مسند مظلاته بالمزاد العلني على ان يدفع ضرائب لمساعدة كنيسة انكلترا يجد نفسه وهو يدفـع ضرائب لا لاغاثة الكنيسة الرومانية في مالطة فحسب بل لاجل ارسال المسيحيين الى السجن محكومين بجريمة الكفر المتضمنة عرض التوراة للبيع في شوارع مدينة الخرطوم .

وتعال الى فرنسا وهي بلاد اكثر انعزالا في انشغالها بلغتها وتاريخها وهويتها الشخصية بعشر مرات منا نحن الذين استكشفنا واستعمرنا وتذمرنا وثرنا . هذا الشعب الذي كان يوما ما مستقلا بنفسه ، يعد الآن اربعين مليونا . على ان مجموع مواطنـي الجمهورية الفرنسية هو حوالي مائة واربعـة عشر مليونا . والفرنسيون ليسوا كأقليتنا المسيحية التافهة التي لا تتعـدى ١١ بالمئة وانما هم الاقلية الكبيرة البالغة ٣٥ بالمئة ذات الكلمـة

---

١ ـ المنشقون او اللامؤيدون : Noncomformists تلك الكنائس التي انشقت عن الكنيسة الانجلكانية الرسمية في انكلترا (القرن السابع عشر) . هؤلاء المنشقون كانوا حتى أوائل هذا القرن يعارضون قانون التعليم الذي تسير عليه الدولة . لانه أوجب دفع شيء من الدخل الفردي بمثابة اعانات لمدارس الانجليكان وكان هؤلاء يرفضون طبعا دفع الضرائب لتمويلها . ولذلك كانت مقتنياتهم تتعرض للحجز والبيع تسديدا للضرائب المذكورة ، كما كانوا يزجون في الحبس بسببها !

الحاسمة الى حد ما . وبما انهم شعب منطقي اكثر منا فقد تخلوا رسميا عن المسيحية واعلنوا ان الدولة الفرنسيةلا دين لها مَعيَّن .

والدولة البريطانية مثلها هي الاخرى ، الا انها لا تقر بذلك . وليس من شك في ان هنالك اناسا ابرياء كثيرين فيها يتأثرون وجهة نظر شارلمان وهم يعرضون المسيحية على التسعة والثمانين بالمائة من وثنيينا كبديل عن الموت (ويؤسفني قول هذا) لــولا الانطباع الغامض عندهم وهو ان هؤلاء الضالين سيهتدون الى الدين المسيحي شيئا فشيئا بمجهودات جمعيات التبشير . على انه ليس ثم سياسي او رجل دولة يؤمن بهذه الاوهام الابرشية السخيفة . وليس بمقدور ملك انكليزي او رئيس جمهورية فرنسي ان يمارس الحكم زاعما ان لاهوت (بطرس وبولس) او (لوثر وكالفن) له صحة موضوعية او ان المسيح اكبر من (بوذا) او ان يهوة اعظم من كريشنا او ان يسوع انساني اكثر او أقل من محمد او زرادشت او من كونفوشيوس . انه مضطر عملا ــ ما دام يقوم بسن القوانين ضد الكفر عموما ، الى معاملة كل الاديان وبضمنها الدين المسيحي معاملة الزيغ والهرطقة عندما تعرض امام الناس الذين لم يتعودوها او يقبلوا بها وهذا ايضا امتياز لتعصب ضار يجب على الامبراطورية لاستئصاله ان تستخدم سلطتها في مراقبة التعليم .

من جهة اخرى ، ليس بمقدور الحكومة في الواقع ان تتجرد من جلباب الدين او حتى ان تتبرأ من عقيدة ما . وعندما قال يسوع ان الانسان يجب الا يكتفي بالعيش فحسب بل ان يعيش حياة اكثر غزارة وانتاجا ، فقد كان يستن مبدأ . وهناك كثير من الحكماء المتشائمين امثال شكسبير الذين توسل احد ابطال مسرحياته بصديق له راجيا منه ان يعمل جهده ليثنيه عن الانتحار فنصحه بقوله « أبعد نفسك عن السعادة ردحا من الزمن » قد يؤكدون رأيهم العظيم الضرر (والواقع ان كثيرا من الوعاظ

والقديسين يصرحون وبعضهم باسم يسوع نفسه) ان هذا العالم هو وادي الدموع . ومن الافضل لنا ان نصرف عمرنا في الحزن بل حتى في العذاب استعدادا لحياة مقبلة افضل من حياتنا هذه. الا ارح هؤلاء الحزانى ، وسيسلمونك الى الحيرة والدهشة حين تجدهم يرتدون قمصانا من الشعر الخشن .

مع ذلك فعلى الحكومات ان تعمل وفق افتراضات مبدئية ، وسواء في ذلك أاسموها مبادىء ام لم يسموها فمن الواضح انه يجب ان تكون قواعد مقبولة من النفوس بحيث تصم من يرفضها بالشذوذ والجنون . وكلما أشتد تنوع السكان واختلافهم في الخواص كلما وجب ان تكون تلك المبادىء ادعى الى القبول . فمن الممكن ان يدار دير الرهبان السكوتيين (١) بمبدأ من المبادىء قد يثير في ظرف اربع وعشرين ساعة هياج اهل القرية المجاورة فتدنو الفتنة حتى تطرق أبوابه ذلك لان الدير هو الذي يختار نزلاءه وان لم يرغب الراهب السكوتي فله ان يتركه . لكن مواطن الامبراطورية البريطانية او الجمهورية الفرنسية لا يخضع لعملية اختيار ما . فالانتقال والهجرة غير عملية الا في حدود ضيقة وهي قلما تكون علاجا ناجعا وكل المواطنين اليوم متشابهون الى ابعد حد.

وواضح بدون شك لكل من كان قادرا على فهم معنى الحكومة بشكل من الاشكال ، ان مجموعة المبادىء الرئيسة التي صيغت بالمواد التسع والثلاثين (٢) أو في الاقرار الويستمنستري (٣)

---

١ ـ رهبنة كاثوليكية تنذر اعضاؤها الصمت الدائم طول العمر .

٢ ـ جملة قواعد ومبادىء تحكم اكليروس الكنيسة الانجليكانية وهي مطبوعة عادة في كتاب الصلوات الانكليزي .

٣ ـ وثيقة كتبتها في ١٦٤٣ جمعية الاحبار التي التأمت في وستمنستر بناء على دعوة البرلمان لايجاد تسوية للخلافات الدينية التي كانت تجتاح البلاد . ومع

هي بدون جدال غير صالحة مطلقا لتكــون قواعد سياسيــة للامبراطوريات الحديثة . ان الايمان الشخصي بها من قبل اي فرد يميل الى اخذ مسألة الايمان مأخذ جد انما يجرده شخصيا من اهلية تسنم منصب امبراطوري رفيع . ان (نائبَ ملكٍ) فــي الهند (كالفني) النزعة مثلا ، او وزيرا للخارجية يعتنق المذهب العمداني المستقل، كفيلان بأن يطوحا بالامبراطورية في المهالك. وآل ستيوارت بمنطقهــم الاسكتلندي ومبدئهم اللاهوتي حطموا هذه الجزيرة الصغيرة التي كانت نواة الامبراطورية . وما يمكــن ان يؤيده المرء بشكل معقول هو ان براعة الانكليز المزعومة في الحكم الذاتي الذي يناقض كل مرحلة من مراحل تاريخهم ، ما هو في الحقيقة ألا عدم براعة لا امل في شفائه . عدم براعة وتخبط في الالهيات ، والفكر المنظم واي جهة من الجهات الاخرى مما يجعلهم كذلك قليلي الصبر على الحكم المنظم او الصالح المنتظم ، ما دام تأريخهم تأريخ شعب أسيء حكمه وشاءت الصدف المحصنة ان عاش .في حرية بدرجة «نسبية» ! وهكذا فنجاحنا في استعمار البلاد عندما تم من دون اللجوء الى ابادة سكان المستعمرات كان بسبب عدم اهتمامنا بخلاص انفس رعايانا ، ويستثنى من ذلك ايرلندا (وهي الدليل الشاخص على عجز الانكليز عن الاستعمار الا بإبادة المواطنين) وهي ايضا البلاد الوحيدة الخاضعة للحكـــم البريطاني حيث ينطلق المستعمِرون الفاتحون من افتراضهم ان مهمتهم انما كانت تثبيت أصول البروتستانتية فضلا عن جمـــع المال ، ومن ثم ضمان حياة السكان البائسين الذين يجمع ذلــك المال من كدهم وعملهم على الاقل . في هذه اللحظة ترفض اولستر

ان الغرض منها هو ان تكون بديلا للمبادىء التسع والثلاثين الا انها اصبحت قانونا لكنيسة اسكتلندا البرسبتارية .

قبول المواطنه مع الاقاليم الايرلندية الاخرى لان الجنوب يؤمن بالقديس بطرس وبوسويه (١) والشمال يؤمن بالقدبس بولس وكالفن . الا فلنتصور تأتير محاولة حكم الهند او مصر من مركز بلفاست (٢) او الفاتيكان .

ولعل الوضع بالنسبة الى فرنسا أخطر من الوضع بالنسبة الى انكلترا ، لان الخمسة والسنين بالمائة من رعايا الفرنسيين الذين ليسوا هم بالفرنسبين ولا بالمسيحيين ولا بالتجديديين . يضمون حوالي ثلاثين مليونا من الزنوج الذين يمتازون بالحساسية والحساسية الشديدة ضد الاهتداء الى تلك الاشكال الخلاصية من المسيحية الزائفة التي نجم عنها كل الاضطهادات والحروب الدينية خلال القرون الخمسة عشر الماضية . عندما حدثني المستكشف الرائد المرحوم هنري ستانلي عن القبضة المحكمة العاطفية التي تمارسها الديانة المسيحية على قبائل الباغاندا وقرأ لي رسائلهم التي كانت تشبه تماما رسائل القرون الوسطى بايمانها الخرافي الحرفي وورعها البادي ، سألته : «أبمقدور هؤلاء ان يستعملوا بندقية ؟» فأجابني ستانلي بشيء غير قليل من التهكم: «طبعا انهم لقادرون كأي رجل ابيض !» والآن في هذه الساعة من العام ١٩١٥ تتأجج نيران حرب اوروبية واسعة النطاق ، وفيها يستخدم الفرنسيون جنودا سنغاليين ، يطيب لي ان أوجه سؤالا الى الحكومة الفرنسية التي تشبه حكومتنا بتركها عمدا التعليم الديني لهؤلاء الزنوج في ايدي مبشرين من الكاثوليك البطرسيين والكالفنيين البولسيين وهذا السؤال هو : هل تفكر في الشروع بسلسلة جديدة من الحروب الصليبية جنودها خلاصيون أفارقة

---

١ ــ (١٦٢٧ ــ ١٧٠٤) لاهوتي فرنسي وواعظ ساحر اللسان .

٢ ــ عاصمة ايرلندا الشمالية .

متحمسون لاجل انقاذ باريس من قبضة الكفار العصريين العلميين تحت شعار : «الا فلنعد الى الرسل ! الا فلنعد الى شارلمان !» .

اننا لاسعد منهم حظا لان الاغلبية الساحقة من رعايانا هم هندوس ومسلمون وبوذيون ، أعني ذوي ديانات عصرية خاصة رفيعة تقوم بمثابة عامل وقائي من المسيحية الخلاصية . ان الديانة المحمدية التي عدّها نابوليون في أواخر حكمه بأنها على أقرب احتمال خير دين شعبي يصلح للتطبيق السياسي الحديث ، كانت ستبرز كمسيحية مستصلحة لو ان محمدا بشر برسالته بين مسيحيين من اهل القرن السابع عشر بدلا من العرب الذين عبدوا الحجر . وكما انت واجد، الناس اليوم لا ينبذون محمدا لاجل الانضواء الى كالفن . وانك اذ تقدم للهندوسي لاهوتا كلاهوتنا بمثل هذه السذاجة بدلا من لاهوته ، او تقدم له ادبيات الشرائع اليهودية بوصفها نسخة محسَّنة للادبيات الهندوسية ، كنت كمثل من يقدم مصابيح قديمة عوضا عن مصابيح أقدم في سوق تكون أقدم المصابيح أعلى قيمة من سواها ، كالاثاث القديم في انكلترا .

مع هذا فلأكرر انه يتعذر وجود حكومة بدون دين ، اي بدون مجموعة من مبادىء شعبية مقبولة عموما . فالعقل المتفتح لا يعمل قط : ونحن عندما نحاول جهدنا الوصول الى نتيجة معقولة ، ما زلنا نجد انفسنا مضطرين الى ان نطبق عقولنا اطباقة محكمة هنيهة من الوقت لنتبع استنتاجاتنا بشكل لا مرد له عندما نعجز عن الاستقصاء او التحكيم العقلي . ان الانسان الذي يزجي الوقت الطويل في تنظيم وصية له معقولة تماما يموت من دون وصية . والمنصف الذي بلغ انصافه حدا لا يجد معه حرجا في السرقة والقتل او في الحاجة الى الطعام او التناسل ربما كان الاجدر به ان يصير وغدا أحمق من ان يغدو مشترعا او رجل دولة . ورجل السياسة العصري مزيف الديمقراطية الذي يزعم انه لم يأت الى الحكم الا لينفذ ارادة الشعب فتكون حركاته اشبه

بقفزات الهره . هو ولا غرو لص مثقف ولص سياسي . وحكم الرجل السلبي اللاعقيدي يعني في الواقع العملي حكم الرعاع بنصه وفصه . وحرية الضمير حسب التعبير الذي استنبطه كرمويل هو شيء ممتاز ومع هذا فلو اقترح احدهم تطبيق قاعدة حرية الضمير بخصوص أكل لحوم البشر في انكلترا ؛ لكان كرمويل سيطرحه ارضا ويهوي عليه ضربا بالفلقة بالفورية والاصالة التي يستخدمها مع اي كاثوليكي تابع لروما . وان كان في فيجي سيساند من كل قلبه حرية الضمير النباتي التي تستخف بالطعام المقدس المسمى «لونغ بيغ» (١) .

هاهنا اذن تأتي اهمية انكار يسوع عمل الهداية . وقاعدته هي هذه : «لا تقلع الحسكة . وابذر القمح . ولو حاولت قلع الحسكة لقلعت السنبلة معها» . وتلك هي القاعدة الممكنة الوحيدة لرجل الدولة الذي يحكم امبراطورية عصرية ؛ او لناخب يساند مثل هذا السياسي . ليس هناك في تعاليم يسوع ما لا يمكن ان يوافق عليه برهماني او مسلم او بوذي او يهودي دون حاجة الى اهتدائهم للمسيحية ، او سؤالك اياهم ذلك . ومن بعض النواحي يكون الجمع بين المسلم وبين يسوع اسهل عليك من الجمع بين بريطاني ويسوع لان فكرة الكاهن المحترف هي فكرة غير مألوفة. ان يسوع لم يقترح على تلاميذه تفضيل انفسهم عن جمهرة المؤمنين . فقد التقطهم من قارعة الطريق حيث لكل امراة او رجل ان يتبعه . وانك لا تجد لديه كلمة طيبة مهذبة للكهنة ولذا اظهروا روح عدائهم له بالسعي لقتله بأسرع ما امكنهم . كان بموجز القول خصما للكهنة على طول الخط . ومع اننا لا نستطيع ــ كما رأينا ــ ان نضع مبادئه موضع تطبيق الا بالوسائل السياسية فانه لم يبق

---

١ ــ «Long Pig» كناية عامية عن لحم الانسان !

جامدا عند حدود شجبه اقامة الثيوقراطيـــة الطائفية كتشكـل من اشكال الحكومة . وكان سيتنبأ بدون شك بسقوط المرحوم الرئيس كروغر لو وجد في زمانه (١) بل لرفض ان يتسير علـى ثلاميذه عندما جوبه بالتحدي ـ بان يمتنعوا عن اعطاء ضريبـــة قيصر (٢) ، مسلما بأن لقيصر مكانته في تصريف الامور (ومفروض لقيصر بأن له ملكوت السماء كأي تلميذ من تلاميـــــده حسب الحق يقال ان التلاميذ جعلوا من هذا عذرا لاظهار تبعيتهــــم وخضوعهم للدولة القائمة ، حتى انحدروا الى هاوية الشرك التي انتهت بنظرية (حق الملوك الالهي) فأثاروا الناس حتى دفعوهم دفعا الى قطع رقاب ملوكهم لاجل تحقيق بعض التعادل في الوضـــع الراهن . ولا شك ان يسوع لم يفكر في تحطيم الامبراطوريـــة الرومانية واحلال منظمة كنيسية محل الكنيس اليهودي او محل نظام كهنوت الآلهة الرومانية كجزء من برنامجه . قال ان الله خير من (مأمون) ولكنه لم يقل ان التوأم الواحد هو خير من التـــوأم الآخر(٣) ولهذا كان بوسع المواطنين البريطانيين ورجال سياستهم اتباع تعاليم المسيح وان لم يكن في استطاعتهم اتباع هذا التوأم ام ذاك والا سببوا في انحطام الامبراطوريـــة وتكسرها علـــى رؤوسهم . والى هذه المرحلة يجب ان اتوقف في الموضوع .

(١٩١٥)

---

١ ـ Paul Kruger (١٨٢٥ ـ ١٩٠٤) رئيس جمهورية الترانسفال، وزعيم حرب البور الشهـــيرة التي قادها ضد الانكليز في جنوب افريقيـــا (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢) .

٢ ـ اشارة الى ما ورد في الانجيل .

٣ ـ هكذا اوردها شو وهي من مماحكاته اللغوية : Tweedledum, Tweedldee ويعني بهما التوأمان في قصة الاطفال الشهيرة (اليس في المرآة)

٣٠٠٠ / ٧٩ / ٦١٩